

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

محمد هيكل

بوابات مصر



دارالمعارف

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٧٢٣]

رئيس التحرير

إسماعيل منتصر

نائب رئيس التحرير

منى خشبة

مدير التحرير

كريمة متولى

مدير فنى

شريفة أبو سيف

تصميم الغلاف

شريف رضا

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

هيكل ، محمد .

بوابت مصر .

محمد هيكل .

- ط ١ - القاهرة : دار المعارف ، ٢٠٠٨ .

١٦٨ ص ١٧١ سم . (سلسلة لقرا) .

تكملة ٢ - ٧١٩٧ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - مصر - الجغرافيا .

١ - العنوان .

ديوى ٩١٦.٢

١/٢٠٠٨/٤

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٣٦١٦

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هاتف : ٢٥٧٧٠٧٧ - فاكس : ٢٥٧٢٤٩٩٩ - E-mail: maaref@idsc.net.eg

محمد هیکل

بوابات مصر



دارالمعارف

اقرا

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها،
لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر
الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون
إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا،
وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من
الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى
وأخصب من الحياة العقلية التي نعيشها.
طه حسين



إهداء

من أرض مصر الطيبة نبتنا
وعليها ارتويننا وعشنا
واليها.. نعود لنزرع فيها

إلى

بشر وحجر مصر
أهدى هذا الكتاب

محمد فهد

مقدمة

عاش السفر داخلي منذ نعومة أظفاري، وكأن روح المغامرة التي نبتت داخلي، قد تمكنت مني، وشجعني في ذلك والدي «حسن» رحمة الله عليه، وعدم اعتراض أمي «دولت» .

كنت في الثانية عشرة من العمر، وبدأت في القيام ببعض مهام أبي العائلية، كنا نقطن مدينة دسوق في الخمسينات وأوائل الستينات من القرن الماضي، وفي الأعياد، كان على السفر إلى المنصورة إذا لم يتمكن أبي من زيارة عمتي التي كانت تقطنها، أستقل قطار الدلتا من دسوق حتى طنطا، وأستقل عربة حنطور تقلني مع «الزيارة» وهي مكونة من «سبتين» بهما ما يجود به الأهل للأهل، وأصل إلى محطة الأتوبيس، لأركب الأتوبيس المتجه إلى المنصورة، ومن ثم أوجرُ حنطورا إلى حيث تعيش عمتي «أنصاف» .

واستعذبت الرحلات

وعندما هممت في شتاء ١٩٦٥ بالسفر إلى الأقصر وأسوان في رحلة الثانوية العامة، وكنا قد قطنا المنصورة وجدت دموع جدتي لأبي «بهية» تنسأل وهي تقول «يا ولدي هاتتغرب ليه وأنت لسه عودك أخضر» .. فترد أمي بحنان.. «يا خالتي محمد رايح مع زملائه ليتعلم» .

هكذا.. رأت أمى فى السفر سبع فوائد، ولأنها شخصية قوية ونافذة مع حنان جارف، بدأت فى زرع هذا الذى تملكنى، بل وتنميته، ربما كان بوعى الأم الفطرى التى تدفع وليدها لاكتساب الخبرات.

من هنا

بدأت رحلتى المحترفة مع السفر منذ الأيام الأولى للدراسة الجامعية.

...

وكننت قد انغrust فى حب الوطن بوعى، والانحياز إلى الفقراء منه بلا تعصب، وبدأت أفهم أننى لكى انحاز إلى الوطن، لابد من التعرف إليه.. وجاء انحيازى المطلق إلى فقراء الوطن عقب حادثتين.

الأولى: وفاة أمى فى عام ١٩٦٩، وكننت حينذاك على جبهة القتال فى السويس، نغنى للوطن، ونحلم باستعادة ما سلب منا فى عام ١٩٦٧.

والثانية: عندما سافرت إلى المنوفية - لأول مرة - لأجرى تحقيقاً صحفياً لمجلة الشباب العربى، الذى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت د. مفيد شهاب أمين شباب مصر. وكان التحقيق عن «محاولة سرقة أحلام ٣٣ أسيرة كانت قد تمتعت بحقوق المواطنة والتملك لأول مرة فى قرية تسمى «الكوم الأحمر» بالقرب من مدينة أشمون.. لكن لسوء الحظ، كانت الحراسة قد فرضت بطريق الخطأ، وعندما تم تصحيح الخطأ لصالح أسيرة طلعت الفرنساوى، كان على الفلاحين

أن يتركوا أرضهم، وقد تعرضت أنا والمصور صبرى الليثى للتهديد والرشوة، إما أن نسلم ما معنا من أوراق وصور، وإما أن نقتل، وفي حالة التسليم نحصل على عشرين ألف جنيه، مع ملاحظة أن أبى أعطانى جنيهين، وأعطتنى المجلة استمارات سفر! .. لم نسلم وهربنا فى الفجر، واكتملت القصة بالسفر إلى أشمون وشبين الكوم.. وقامت القيادة السياسية فى هذا الوقت بحل محترم، يحترم حقوق الفلاحين، وحقوق الملاك..!

هاتان الحادثتان حسبا داخلى انحيازى إلى الفقراء، وإلى الحقيقة فى هذا الزمان.. وهذه المرحلة العمرية.

...

سكنى الوطن وفقراؤه

وعندما سافرت إلى الوادى الجديد، فى عام ١٩٧١ وقطنت قرية تسمى «بولاق» بالقرب من مدينة الخارجة، أرسلت خطابا لأبى أشرح له ظروف الغربة، وكانت إجابته لى فى رسالة واضحة تقول: «أى غربة تتحدث عنها، لقد زرت نصف مصر، وبقي لك النصف الثانى، أنت فى وطنك مادمت تشعر بالمواطنة الحقيقية، وأنت فى بلدك مادمت تؤدى واجبك تجاهه، يا ولدى.. مصر بلدك» .!

أى أب جميل هذا الذى يزرع الأمل وحب الوطن فى نفس وقلب وعقل ابنه.

...

لقد تحول عشق السفر والانتماء إلى الفقراء والبحث عن الحقيقة
ومساعدة زوجتى «سميرة» على القرحال، وعدم ممانعتها لهذا العشق..
إلى عشق لهذا الوطن.

عاشق أنا لمصر نيلها.. طينها.. رمالها.. والأكثر لناسها أولئك
الذين سكنوا مصر بلا مزايده، أو تزايد.

وكانت رحلتى إلى الوطن، الناس، الحجر، هى - كما قال عمنا
جمال حمدان - محاولة لرسم صورة مصر، ومصر بلا شك موضوع مثالى
نظرا لما تتمتع به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود، ولما تمتلكه من
تاريخ حافل، كما أننا الآن فى حاجة لفهم كامل لوجهتنا، كياننا،
مكاننا، إمكانياتنا، ملكاتنا.

...

وبحثى فى أقاليم مصر.. مدنها.. وقراها.. ونجوعها حلم يختلط
بالحقيقة!

فإذا كان «فرويد» يرى فى الحلم دلالة على الماضى، وكان «يونج»
يرى فى الحلم دلالة على المستقبل، ورؤية المعنى فى التاريخ كما تقول
«نعمات أحمد فؤاد» دلالة على المستقبل، فإن وعى التاريخ ليس اجترارا
للماضى، إنها معاصرة واستجماع للانطلاق.

هذا ما يحدونى وأنا أتأمل خارطة الوطن، وبوابات مصر الحدودية..
وقد طاردنى لإكمال مشوارى مسألتان الأولى وصف مصر، الذى أعده

مجموعة من الباحثين الفرنسيين قبل أكثر من مائتى عام، وقدمه
مترجما لنا أحد دراويش مصر «زهير الشايب» والثانية حلم العم جمال
حمدان فى شخصية مصر.

أجوب أرض مصر

أبحث عن البشر والحجر.. عن الحقيقة

...

وإذا كان ما يتردد من أن مصر هى «أرض المتناقضات» ربما تحت
التأثير الشديد بين الفروق الاجتماعية الصارخة، أو بين خلود الآثار
القديمة، وبساطة المسكن الفردى، أو بين الوادى والصحراء، حيث
يتجاوران جنبا إلى جنب، كما تتجاور «الحياة والخلود» .

لذلك.. فنحن أمام حالة نادرة من البلاد - كما يقول جمال حمدان -
من حيث السمات والقسمات، وبالنظر إلى مصر تحديدا، فهى بالجغرافيا
تقع فى إفريقيا، وبالتاريخ تنتمى إلى آسيا، وهى متوسطة دون مدارية
بعروضها، وموسمية بمياهها وأصولها، هى فى الصحراء وليست
منها، إنها واحة ضد - صحراوية بل ليست بواحة! وإنما شبه واحة،
هى فرعونية بالجد، وعربية بالأب، ثم إنها بجسمها النهري قوة بر،
ولكن بسواحلها قوة بحر، وهى تضع بذلك قدما فى الأرض، وقدما فى
الماء، وهى تمد يدا نحو الشمال، وأخرى نحو الجنوب.. وهى توشك
أن تكون مركزا لثلاث دوائر: «فى قلب الوطن العربى، ووسط
العالم الإسلامى، وحجر الزاوية فى العالم الإفريقى».

وهى بذلك.. لا تجمع بين الأضداد والمتناقضات، وإنما تجمع بين أطراف غنية ومتعددة، وجوانب خصبة، ولعل فى هذه الموهبة الطبيعية، سر بقائها وحيويتها، وهى حسب نظرية «هيجل» تجمع بين «التقرير والنقيض» فى «تركيب متزن أصيل، ومن ثم تظهر «حقيقة» تتحول إلى «قانون» أن النيل ليس مانحا - فقط - للحياة فى مصر، لكنه موزع للحياة على وجهها، لذلك فهو محور مصر وعمودها الفقرى، ومصر بدورها هى نيلية التركيز والاستقطاب.

ويقرر د. جمال حمدان أن الشعب المصرى منذ فجر التاريخ وحدة جنسية واحدة الأصل، متجانسة بقوة فى الصفات، والملامح الجسمية، وقد ظل محافظا على هذا التجانس حتى اليوم، ويمكن الكشف عن هذه المسألة بسهولة من أن التماثيل الفرعونية منذ عصر الأهرامات، تتطابق وجوهها مع وجوهنا الحالية.

...

وأقرر وأتفق مع د. نعمات فؤاد ما توصلت إليه، وما تحققت منه: أن مصر شخصية ولعة بالولادة والتوليد، فيها نُزُوع إلى السلاسة فى همس يبلغ فى الخفوت قوة التوثيق، فيها حنان فى حنايا الأعمدة وعروق النبات ونمنمة فى الفن، فإذا بالتشابه والتشابه ليس بينهما فراق أو شقاق.

وهى.. شخصية فيها ثراء البساطة، وزهد الغنى، وجلال التواضع، وسكينة من مسالة وسلام.

وهنا

على هذه الأرض:

نضج الإنسان والنضج وعى، والوعى سعى إنه تحريك القوى فى كل مكان.. وهذا ما حدث فى مصر.

إذ إن مصر تعلمت من الحجر الصبر، ومن النور البهجة، ومن الماء الرقة والعذوبة ومن السماء الرحمة، كما أن مصر أحبت الشمس ورأت فيها انتصارا على الظلمة، انتصار الحق على الباطل.

...

والثابت - على حد تعبير د. نعمات فؤاد - أن المصريين انبهروا بواديهم الأخضر، وسموه أكثر من اسم، فهى - أى مصر - عندهم «كيمة» أى «السمر» و «تاكيم» أى «الخميرة» و «تاوى» أى «الأرضين» و «ايدبوى» أى «الضفتين» .

وقالوا:

«ايره رع» أى «عين الشمس» . و «جاه نثرو» أى «عين رب الأرباب» و «إترتى» أى «ذات المحرابين» . و «باقسة» أى «الزيتونة» الخضراء دائما.

وأطلق عليها الجيران من الكنعانيين والأشوريين والفينقيين والبابليين «مصرى ومشرى ومصرم ومصرايم ومصرين» واختتمها القرآن الكريم بـ «مصر» .

وتمتد كلمة «مصر» إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهناك من يقول: إن «كلمة مصر مركبة من كلمات ثلاث بمعنى «بلد أبناء الشمس» والكلمات الثلاث هي:

«ما» بمعنى موضع.

«سى» بمعنى ابن.

«رى - را» بمعنى الشمس.

ومنها: «راع» الذى ينسب إليه بعض الفراعنة، ومن حب المصريين لمصر، كان قداماؤهم يسمون أنفسهم «شعب الشمس» و «الشعب النبيل» و «شعب الإله» .

كما أن «مصر» فى القرآن الكريم ﴿جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٦٦ وَنَعْمَ ۝٦٧﴾^(١).

يقول الكندى: «وصفها بما لم يصف به مشرقا ولا مغربا، ولا سهلا ولا جبلا ولا برا ولا بحرا» .. ومصر فى القرآن الكريم ﴿أَفْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾^(٢).

حتى «آدم» الذى فتح عينيه على الجنة، راعته مصر كما يقول الأسىوطى، تمتم «لاخلت مثلك يا مصر بركة، ومازال بك حفظ، ومازال منك ملك وعز، يا أرض فيك الخباء والكنوز، ولك البر والثروة، سال نهرك عسلا، كثر الله زرعك، ودر ضرعك، وزكى نباتك، وعظمت بركتك» .

(١) سورة الدخان الآية ٢٥ - ٢٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٦١.

..
هذه هي مصر، التي أحاول البحث فيها وعنها، وشرف لي أن أكون
واحدًا منها، هي أرض أجدادي، ومفتاح الحل لأحفادي.

المؤلف

محمد هيكل

النوبة.. الحجر والبشر

فى المبتدأ:

الحضارة المصرية هبة أهلها.. لأنها إبداع خاص بالمصريين، ووثائق التاريخ.. وحفائره أثبتت وحدة ونقاء الجنس المصرى على حد توثيق «فلندز تبرى» .

هاتان حقيقتان وهما منطلقتان من إيمان عميق بوحدة الوطن، ومسيرته الحضارية التى تؤسس للوعى الذى ينتقل من مستوى «الخصام والدعوة إلى الفرقة والسعى إلى تحقيق مصالح ضيقة» إلى مستوى «الحوار المنطلق من مسائل لا تقبل القسمة على اثنين، وصولاً إلى مستوى الوحدة، غير متجاهل لمسألة التنوع واحترام الخصوصيات» .

ذلك يدفع إلى تأسيس الوعى بالتاريخ الذى يصنع نهضة الأمة، ويرسخ للعلاقات الحقيقية القائمة بينها، ووحدة التنوع هى ضرورة حتمية للتقدم فى الزمن، بالتاريخ وفى التاريخ.

...

هذه السخونة فى الشاعر «انتابتنى» نتيجة عاملين:

الأول: تلك الإثارة المجوجة حول أثنىة الوطن المصرى، الذى يضم فى مقدمة رثتيه «النوبة» .. تلك الأرض بنية اللون، ومواطنها الأسمر، الذى فى سمرته رمز الأصالة، وأصالة الانتماء إلى الأرض الطيبة.

فضلا.. عن تلك الدعوة المسمومة فى «الانفصال» وتحويل الخصوصية النوبية، والتتويعة المصرية إلى حق فى تكوين هامش منعزل عن الوطن الأم باسم الظلم والإهمال والتهمجير والإبادة، وذلك عبر بوق أمريكا راعية النزعات الانفصالية والزعزعة الدينية والتفرقة العنصرية.. مع التأكيد على تباين اللون، بالرغم من أن بعضا من أصدقائى وأهلى، وهم من أصول شمالية خالصة. لا يختلفون قيد أنملة فى لونهم عن أهلنا فى النوبة.

الثانى: زيارتى - مؤخرا - لمتحف النوبة بأسوان، الذى يعد «مفخرة» على المستوى الفنى، وفى العمق، هذا النسيج المصرى الخالص عبر السنين، التى شكلت بحق «حضارة» هى «هبة المصريين» والتعبير للدكتور زاهى حواس، لأنها تمثل نقاء خالصا للجنس المصرى، الذى لا يفرق بين شماله وجنوبه وغربه وشرقه.

(١)

ومازلنا فى المبتدأ

فى إهداء الرواى النوبى حجاج أدول إلى محمود سيالى فى رواية «الكُشر» .. ذكر أن محموداً نصح أهله بالصعود إلى الجبل، حتى ينجوا من الموجة النيلية، وألا ينحدروا شمالا، فلم يستعينوا النصح، إلا ضحى الغد!

والمعروف «طبيعيا» أن الموجة النيلية تأتى من الجنوب، لأن نهر النيل، هو النهر العاصى، لأنه ضد الطبيعة - كما يقول عمنا جمال

حمدان - «كل أنهار الدنيا تنبع من الشمال وتصب في الجنوب، إلا نهر النيل، فينبع من الجنوب ويصب في الشمال، إنه العاصي الأعظم» ! ولنتأمل مقولة «أدول» وهي ليست اجتزاءً من النص:

«تجرى المياه الأفريقية نحو الشمال محملة بالغرين المخصب، قائلة لناس الوادي، خذوا المياه المقدسة، وازرعوا بها أرض الله المقدسة، كلوا هنيئاً مريئاً، ولا تسرفوا، ولا تنسوا ربكم الواحد الأحد الذي يرسل لكم تلك المياه الولادة بقدر» .

ويبدو أن الكابوس الذي هاجم قرية توماس - في رواية الكشر - بذلك الطوفان الذي سيفرقها، ونفس الكابوس الذي هجم بنت عبد الله شاتي حتى أعيهاها، هو ذلك السد العالي الذي أدى إلى إغراق أرض النوبة. ويبدو - أيضاً - أنه كابوس حجاج أدول.

ويتضح - أيضاً - من الرواية، تلك «اللولولة» من جانب نساء قرية توماس خوفاً من الطوفان الذي سيفرق قريتهن، صار الهاجس لدى أدول، والذي تحول من حق التوطين في أرض الأجداد المقدسة، إلى تلك الهجرة غير الطوعية، وتحول لديه من حق المواطنة، إلى دعوة الانفصال وتكوين ما يسمى «بيت النيل» .

وأعترف بهذا التسجيل الإبداعي، من خلال الموروث الذي يتضح في هذه الصورة البديعة التي ساقها أدول لنساء قرية توماس «رقصة النائحات الجماعية» مازالت نساء القرية غارقات فيها، يَحْسُون الرمال على رءوسهن، يدبدبن بأرجلهن ذات الخلاخيل فيعطيهن

الرنين إيقاعا حادا، يلوحن بأياديهن، فتصدر صلصلة الغوايش الذهبية والخزفية، صلصلة قدر يحوم ويستقر على رءوسهن !
هذه الصورة الصادقة لنساء توماس النوبية، هي ذاتها متكررة في ريف مصر الشمالى، ومتكررة فى نجوع الصعيد.

...

أفهم.. واستوعب هذا العالم القديم – الذى يقدمه أدول – حيث العذوبة والخيال، حيث اللعب فى الجرن، والجموح الجنسى لدى المراهقين فى لعبة «الاستغماية» .. كلها محصلة طبيعية للتعامل البسيط مع الطبيعة، وهى تمثل الخصوصية، لكنها لا تعنى الانسحابية.

...

وقد اتفق حجاج أدول فى رواية «الكُشر» ومحمد خليل قاسم فى «الشمندورة» .. فى ذلك الخطر القادم من الفيضان، على إثر بناء السد العالى عند أدول، والتعلية الثانية لخزان أسوان عند قاسم، لكنهما اختلفا فى المقصد، الأول ينعى، ويطالب بالقصاص من خلال كيان انفصالى يسمى «بيت النيل» .. والثانى يبحث عن العدالة الاجتماعية، وعلى حد تعبيره «نحن نوبيون نعرف معنى أن تكون نوبيا وفقيرا» !
والشمندورة – على حد وصف فريدة النقاش – رواية كفاح من الطراز الأول، هنالك قرية «قطة» وعدد من قرى بلاد النوبة التى تمثل فيما بينها كيانا اجتماعيا وتاريخيا متسقا، تحشد قواها وتستعين بكل مقوماتها الروحية والمادية لمواجهة الطوفان القادم.

«نتشبت بمواقع أقدامنا على الجرن» .. وهو تشبت به كيان حضارى واجتماعى متماسك، مهدد بالاندثار من خارجه، عاجز بحكم حدوده على التناطح مع الفيضان القادم، مع الدقات العنيفة على أبوابه للعالم الخارجى الذى لا يأبه به.

لقد أنتجت الثقافة الخاصة ببلاد النوبة – والتي تكونت عبر تاريخ طويل فى أعماق جنوب الوادى لتمتد إلى شماله – عددا من خيرة مثقفى مصر، منهم زكى مراد ومحمد خليل قاسم ومحمد حمام ومحمد منير – ليسهموا أكبر كثيرا من الكم العدى لأبناء النوبة، وليصبح هذا الإسهام علامة مضيئة فى ثقافتنا المصرية المعاصرة.

واسمعوا معى آخر سطور الشمندورة.. وهى تحمل الأمل «وقبل أن يختفى النجع، رأيت النيل يبرق بثريات باهرة، تصعد، ثم حانت منى التفاتة جانبية إلى الشمندورة الحمراء، فوجدتها ترتطم ارتطاما شديدا بالسلسلة التى تشدها إلى قاع أليم، ثم تهدأ، لتعاود النضال من جديد» !

والرواية.. ليست بكاء على أطلال، وانتقاما من واقع سياسى أو تاريخى، لكنها رؤية متفائلة للعالم، مؤمنة بالإنسان، وبحقه فى العيش بحرية وكرامة.

(٢)

يمتد نظرى من أعلى قبة فى أسوان، من كوخ يسمى «البيت النبوى» تتكشف أسوان أمامى، يتجه نظرى جنوبا جنوبا، لكن سرعان ما أتحوّل

شمالا فى حركة لا إرادية.. إذن هو «الوطن» من جنوبه إلى شماله.
والبيت النوبى ليس متحفا للتاريخ، إنه «مقهى» متواضع، لكنه فى
موقع ساحرى.. مع إطلالة صباح جديد، تشرق الشمس الذهبية ناشرة
نورها، محتضنة النيل، الذى أتصفح أبجديته بفخر إلى درجة الحماسة،
فأشتعل دفئا، وفى غروبها - أى الشمس - وبنفس اللون الذهبى، تغطس
فى مياه النهر، لكنها فى الصباح التالى تعود، لتنفض عنها رزاز المياه
النيلية المقدسة بعد أن توضأت بها، لتعلن نهارا جديدا.

ما بين الأمس

واليوم.. وغدا

أذهب للتاريخ

هى.. ليست محاولة لتمصير النوبة، أو إكسابها هذا اللون البنى
لنيل مصر، أو أننا أبناء وطن واحد.
ليست القضية فى رأسى ويقىنى ذلك.
إنما هى.. قضية الوطن الواحد متعدد الأعراق، متباين الثقافات،
الذى أفرز حضارة، هى هبة أهلها.

وما يدهشنى - حقا - ويثير الأسئلة المفتقدة فى رأسى، كيف صنع
الإنسان المصرى حضارته؟ كيف طوع الحجر، وصنع منه فنا؟ كيف
تعامل مع هذه الطبيعة القاسية منذ آلاف السنين فى هذه البقعة المقدسة
من أرض مصر؟

من البيت النوبى من فوق هذه القبة العالية الساحرة أتأمل مجرى
النهر، هذه الصخور العاتية، وعندما أجلس القرقصاء أمام رمسيس
الثانى فى معبد «أبو سنبل» أنتظر سطوع الشمس على وجهه فى الواحد
والعشرين من شهر فبراير، والواحد والعشرين من شهر أكتوبر من كل
عام، وفى الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة بالتمام والكمال،
وعبر آلاف السنين، مع تغير العوامل المناخية.. أتأمل ذلك.

إذن هناك سر

لكنه ليس سحرا

هناك علم

وليست خزعبلات!

وعندما أتأمل تمثاله المسكون فى حضن الجبل والذى يرتفع أكثر من
ثلاثين مترا وبجواره زوجته نفرتارى الجميلة أخالنى يقول لأحفاده
وكل من اندهش لرؤيته من كل أجناس الدنيا: «يا أطفالى.. لكى تبقى
الحضارة، يجب أن يكون العلم والإبداع والجدية والإخلاص.

...

وندخل إلى عالم الحجر

فالمسافة من أسوان إلى «أبو سمبل»، كانت مسرحا لحضارة نوبية،

ولنتأمل تقسيم النوبة جيومورفولوجيا وجيولوجيا، وهى تنقسم

إلى وادى النيل والصحارى.

فى الوادى يمر النيل النوبى من حلفا إلى أسوان، قاطعا مساحة ٣٥٠ كم عبر وادٍ ضيق تحفه أكراف حادة الانحدار، وفيما بين حلفا وبلانة، شق النهر واديه فى صخور من الحجر الرملى، وإذا كان هذا المجرى قد اختفى الآن تحت بحيرة السد العالى، فإن بقايا هذه الصخور لا تزال طافية مثل الجزر على سطح البحيرة.

وفيما بين منطقة وادى العلاقى وأسوان، شق النيل واديه فى أرض جرانيتية تعلوها طبقة رقيقة من الحجر الرملى، وقبل تكوين بحيرة السد العالى، كان النهر يشق مساره فى الصخور المتبلورة عند كلابشة بعرض لا يزيد على مائتى متر، وكانت هذه بمثابة أضيق بقعة للنيل فى مصر، مما انتفى معه وجود أى سهل فيضى على جانبيه، وعند أسوان، يتخلل النهر كتل هائلة من الصخور النارية التى تشكل الجندل الأول، وفى شماله، تتلاشى هذه الصخور النارية، لتظهر بدلا منها الجزر الطينية والرملية، التى ترتكز على بقايا صخور نارية أو طبقات من الحجر الرملى.

والشق الثانى:

الصحارى: وفيما بين أدنان وكلابشة، تحف أكراف الحجر الرملى ببخيرة السد العالى، وهى طبقات أفقية معتدلة الميل ناحية الشمال، متعددة الألوان، ما بين الأسود والبنى المحمر والأصفر الباهت والرمادى الأبيض، مما أعطى منطقة النوبة صبغة بنية متميزة.

وقد تأثرت صخور الحجر الرملى بالصدوع الكثيرة ذات الاتجاه، شرق - غرب، خاصة جنوب مرتفعات كورسكو، وشمال - جنوب، فى شمال وجنوب كورسكو، بعضها له امتداد ملحوظ مثل صدع كلابشة، وقد كانت لهذه الخطوط التركيبية أثر كبير فى تشكيل تضاريس منطقة النوبة، ويرى ذلك فى اتجاهات الأعراف «Ridges»، وفى الظواهر المورفولوجية، وفى مسار النهر، وتتخذ الأشكال المورفولوجية اتجاهًا شرق غرب فى الجنوب، وشمال جنوب فى شمال كورسكو، وفى المنطقة الواقعة بين كورسكو وأسوان، حيث يظهر الجرانيت والنيل الأسوانى تحت غطاء رقيق من الحجر الرملى، كما أن ظهور الكثبان الرملية سمة مميزة للمنطقة.

أما فى الجنوب بالقرب من «أبى سنبل»، فتظهر الموائد الصخرية، والأقماع المخروطية من الحجر الرملى على جانبي بحيرة السد العالى، وتظهر الأعراف الطولية من الحجر الرملى شمال كورسكو بدلا من التلال المخروطية من الحجر الرملى، نتيجة ما يسمى الحركة التقوسية، عندما تحيط بمسافة منبسطة ومتسعة أكثر من ٣٠٠ كم جنوب صدع كلابشة.

(٣)

.. وفى زيارة للتاريخ

وبالكشف عن البشر فى هذه البقعة المقدسة، من أرض مصر، تشير الكشوف الأثرية إلى مدى الارتباط الحضارى الذى جمع أهل وادى النيل،

جنوبه وشماله، فخلال الحقب الزمنية المختلفة، التي تعرف باسم العصر الحجري القديم، تنقلت بين جنباته جماعات اعتمدت في حياتها على صيد الأسماك والحيوانات البرية، ويستدل على ذلك من الأدوات الحجرية التي خلفوها وراءهم، والرسوم الصخرية المنقوشة على جانبي النهر، التي أوضحت إقامة مساكن مؤقتة قريبة من النهر، وقد عثر على آثار هذه الجماعات في أماكن عديدة مثل «عافية وخور داود ووادي السبوعة وتوشكى» .

وتشير الوثائق والكشوف الأثرية إلى أن تحولات حضارية طرأت على أهل النوبة منذ أكثر من ١١ ألف سنة، إذ عثر في موقع «النبطة» ٤٥ كم غرب أبي سنبل، على شواهد معمارية من منازل ومقابر تعتبر مؤشرا لاتجاه المجتمع نحو الاستقرار، مما يشكل مرحلة انتقالية بين العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث.

ومع نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، استهل الشطر الشمالي لوادي النيل عصوره التاريخية، عندما اخترع نظاما للكتابة، وتمكنوا من إنشاء دولة موحدة، تصرف أمورها حكومة مركزية واحدة، إلا إن الأمر لم يسر في النوبة على نفس الوتيرة، نظرا لظروفها البيئية والجغرافية، ولضيق مساحة الأراضي الصالحة للزراعة، لذلك، كانت خطاهم في الحضارة أبطأ من أشقائهم الشماليين.

ونظرا للرابطة العضوية بين شمال الوادي وجنوبه، لم يجد علماء الآثار مناصا من التوفيق في الرؤية التاريخية، فقد انتشرت في العصر

الفرعوني شواهد كثيرة فى أماكن مختلفة فى النوبة، وتدل الصفات التشريحية لأصحابها على أنهم لم يختلفوا «عنصرياً» عن أقرانهم الشماليين، ويشير تزايد السكان على أن عناصر مهاجرة من الشمال استقر بها المقام فى النوبة.

كما تتوفر شواهد كثيرة على صلة النوبيين بالشماليين، فقد عثر فى بعض دفنات عصر بداية الأسرات على رؤوس مقامع بمقابض ذهبية وأدوات نحاسية وصلابات وأوان فخارية وحجرية كلها مصرية الطراز، وفى جبل سليمان جنوبى بوهن نقشت لوحة باسم الملك «جر» أحد ملوك الأسرة الأولى المبكرين.

وفى الدولة القديمة ٢٧٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م كانت مصر تمر بواحدة من أزهى وأرقى عصورها التاريخية، وقد ارتأت حكومتها المركزية فى «منف» أن تبسط سلطانها على كل أطراف الدولة، بما فى ذلك النوبة السفلى، وكذلك أنشطتها فى المحاجر، لا سيما محجر «الديوريت» غربى توشكى، وظهرت فى أماكن مختلفة أشهر ملوك هذا العصر أمثال «خوفو وخفرع ومنكاورع» من الأسرة الرابعة، و «سركاف وساحورع» من الأسرة الخامسة.

وزاد نشاط الحكومة المركزية كثافة خلال الأسرة السادسة ٢٣٤٥ - ٢١٨١ ق.م، ويظهر ذلك فى نصوص بعض كبار رجال الدولة، وحكام أسوان، فقد قام الموظف المشهور «ونى» بتمهيد خمس قنوات للملاحة النهرية بين صخور الجندل الأول لتيسير سبل الملاحة

بين شطرى الوادى، وجند فى جيشه عناصر نوبية من «أرثت وواوات ويام ومجاي» لمحاربة المغيرين من البدو على حدود مصر الشمالية الشرقية، وقام «حرخوف» حاكم أسوان بأربع رحلات استكشافية فى النوبة وصل فيها إلى «يام» التى كانت تقع جنوب الجندل الثانى، ذلك فضلا عن أسماء الأماكن والقبائل النوبية التى راحت تتردد فى النصوص المصرية، فقد ظهر فى متون الأهرام اسم الإله النوبى «ددون» والذى يوصف بأنه «جالب البخور» .

(٤)

وبعد مرور المصريين بتجربة شديدة المرارة بعد وقوعهم تحت الهكسوس، تغير مفهومهم للحدود الآمنة فى الدولة الحديثة ١٥٥٠-١٠٧٠ ق.م .. وما إن تخلصوا من الحكم الأجنبى، وتحررت إرادتهم، حتى سعوا إلى توطيد أركان استراتيجية دفاعية جديدة، قامت على أساس توسيع حدود مصر، والتى هيات بناء أول امبراطورية مصرية فى أفريقيا، بل وآسيا.

وانعكس الفكر السياسى المصرى الجديد على علاقة مصر بالنوبة، ولم ينس الفراعنة الجدد، تحالف دولة «كوش» النوبية مع الهكسوس، لذلك وجدوا لزاما عليهم ضرورة القضاء على أدنى خطر قد ينشأ، ويهدد الأمن القومى، وذلك بضم جنوب الوادى إلى الدولة المصرية فى الشمال. وإذا كان الفضل يرجع إلى كل من «كامس وأحمس» فى عودة النوبة السفلى إلى سابق عهدها كجزء من الدولة، فإن الفضل يعود إلى

«تحتمس الأول» فى القضاء على الكوشية ودخول عاصمتهم «كرما» ..
والوصول إلى الجندل الرابع ، وفى عهد حفيده «تحتمس الثالث» غدت
النوبة بأسرها - من الجندل الأول حتى الرابع - جزءاً لا يتجزأ من
الدولة المصرية.

ولم تعد النوبة فى نظر الدولة المصرية مجرد إقليم حدودى ، ينبغى
حمايته بالقلاع والحصون - كما كان الحال فى الدولة الوسطى - وإنما
اعتبرتها امتداداً طبيعياً للأراضى المصرية ، تسرى عليها النظم التى
كانت مطبقة فى سائر أنحاء الدولة.

(٥)

ويتسم التراث الشعبى النوبى بالثراء والتنوع ، ويتمتع
بخصوصية تميزه عما عداه فى أرجاء وادى النيل ، نظراً لأنه نتاج
ثلاث جماعات:

- ١ - الكنوز ويتكلمون اللغة المانوكية.
- ٢ - الفديجة ويتكلمون اللغة الفاديجية.
- ٣ - عرب العليقات الذين وفدوا على النوبة من شبه جزيرة سيناء
خلال القرن الثامن عشر الميلادى.

وتتكون قرى النوبة من مبان مقامة من الحجر والطين والرمل ،
أما أسطح منازل محدودى الدخل فتتكون من جريد النخل وسيقان
الذرة ، وأسطح الميسورين هى على شكل قباب مبنية من اللبن ، وعادة
ما تفرش أرضية المنازل بالرمل النظيف ، وتتدلى من أسقفها أدوات

الاستخدام اليومي، ويزين جدران المنزل خاصة الواجهات حليات وزخارف، ويتكون المنزل - عادة - من المدخل، الفناء، غرف النوم «القبارى» المخزن، المطبخ «الديوكة» والمرحاض والمزيرة.

وتتعدد أنواع الحلى النوبية، منها القلادات والدلايات والأساور والخواتم والأقراط وزمام الأنف والخلاخيل، وغالبا ما تصنع من الذهب أو الفضة، وتطعم بأحجار شبه كريمة، وتنحصر الصناعات والحرف النوبية فى السلال والحصير من سعف النخيل والأوانى الفخارية، ويذكر هنا، أن هذه الصناعة اعتمدت اعتمادا كاملا على النساء اللاتى يبدأ إعدادهن لها منذ الصغر.!

ولجأ النوبيون - شأنهم فى ذلك شأن أبناء الوادى - إلى التمايم والأحجية والأحراز لجلب الخير، وقد أخذت أشكالا مختلفة، منها ما يرسم على الجدران مثل العقرب والعين وشكل المثلث، ومنها الضفائر المصنوعة من الخرز والصوف، وتعلق على أعمدة أسرة النوم، ومنها سلال الخوص الملونة والمزينة بقواقع ناصعة البياض تتدلى من أسقف الغرف مثل النجف.

ويتسم الرقص النوبى بالجماعية، يشترك فيه الرجال والنساء على حد سواء، ويرتبط بموسم الزراعة والحصاد، مما يساعد على وفرة المحصول وسعة الرزق.

والزواج النوبى، مسئولية الوالدين، وإن كان العم والخال يشتركان فى تحمل المسئولية، لأن نظام القرابة النوبى، نظام مزدوج، بمعنى أنه يجمع بين النسب الأبوى والأموى.

ويعتبر زواج الفتى من ابنة عمه، مسألة أخلاقية - كما يحدث في القبائل الشمالية - وإذا تزوجت الفتاة بغير ابن عمها أو ابن خالتها، يصبح مهرها أقل بكثير!

ويحرص النوبيون على تقديم النقود والهدايا العينية لأسرتى العروسين، للمساعدة فى إقامة حفلات الزواج - ولأن النيل يشكل عنصرا جوهريا فى الثقافة النوبية - لذلك يتعين على العروسين أن يهبطا إليه ليلة الزفاف، ويغتسلا بمياهه أملا فى جلب الخير وإنجاب الأطفال!

(٦).

وأصل إلى «الخبر» ... للإجابة عن «المبتدأ» .
وتتمحور الإجابة فى جملة واحدة «متحف النوبة» .
وتعود فكرة إنشاء المتحف إبان الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة، فى الستينات والسبعينات، من القرن العشرين، ليضم التراث الأثرى والتاريخى والحضارى والبيئى لبلاد النوبة - كما يقول أسامة عبد الوارث مدير المتحف - وليكون تتويجا لدور الحملة الدولية لإنقاذ هذه الآثار بأن تعرض فى متحف.
وتلخصت فكرة تنسيق الموقع - كما يقول د. أحمد نوار الذى حمل على عاتقه ورفاقه إنشاء المتحف - على اعتبار التكوينات الصخرية من أبرز عناصر الموقع، واستعمالها فى تكوينات متنوعة، تميز

التنسيق المطلوب، لجعله مناسباً لعرض التماثيل واللوحات الأثرية كبيرة الحجم فى الهواء الطلق.

كما تم عمل مجموعة من المسارات، وحفر قنوات مائية وبحيرات ترمز إلى نهر النيل من المنبع إلى المصب، مع مجموعة جنادل توضح العلاقة بين النهر والقرية النوبية المحاطة بنباتات ذات أصول مصرية قديمة، إضافة إلى مسرح مكشوف، وعرضت على جدرانها مجموعة من الرسوم لحيوانات ما قبل التاريخ.

ويتكون المتحف من ثلاثة طوابق «تحت الأرض ويحتوى على قاعة العرض الرئيسية ومعامل الترميم والورش، والأرضى، ويحتوى على المداخل الرئيسية وقاعات العرض، أما الطابق الأعلى، فيحتوى على كافيتريا ومكتبة ومكاتب الأمناء وإدارة المتحف ومركز للمعلومات. والمتحف مقام على مساحة ٧٠٠٠ م^٢، تحتل مساحة الموقع الخارجى والمكشوف ٤٣٠٠ م^٢، فيما تحتل مساحة قاعات العرض ٣٥٠٠ م^٢، و ١٠٧٠ م^٢ للمخازن، و ٢٣٧٠ م^٢ للخدمات العامة.

ويطمح المتحف - على حد تعبير أسامة عبد الوارث - فى أن يصبح مركزاً علمياً لعرض التراث الحضارى النوبى من الناحية التاريخية والأثرية، إضافة إلى الجيولوجية والثقافية، من أقدم العصور حتى بناء السد العالى، كما أن المتحف مصمم ليكون مركزاً للدراسات المتحفية بمنطقة أسوان.

والمتحف يستقبل زواره على مدار العام بشكل مكثف - كما تقول مسئولة العلاقات العامة حنان الجابرى - ويستضيف الندوات والمؤتمرات سواء كانت ثقافية أم علمية، فضلا عن أن مكتبة المتحف تقدم للباحثين والزوار ما يحتاجونه من كتب باللغات المختلفة.

وعن أناقة المتحف ونظافته، تقول: هذه تخرج من نطاق الوظيفة إلى حيز الإيمان بالموقع، باعتباره متحفا لحضارة عريقة، وواجهة حقيقية لمصر، ونحن لا نقل عن الفرنسيين فى الاهتمام بآثارنا، وإذا كان أجدادنا قد تركوا لنا هذه الثروة ممثلة فى هذه الحضارة العظيمة، فمن باب أولى على الأحفاد الاهتمام بها، ورعايتها.

ويرى د. أحمد نوار:

أن المتحف ظل حلما طال انتظار تحقيقه، وهو يحكى قصة الكفاح العظيمة للإنسان المصرى، بين الصخور العتيقة، وشلالات النهر الجارفة، وهو يبني حضارة تتحدى الزمن، فنا وعلم وثقافة، وهو يخلد ذكرى القلاحم الرائع بين شعوب العالم فى استجابتها لنداء اليونسكو لإنقاذ آثار النوبة.

وتبرق عينا «نوار» وهو يلخص المشروع المتحفى بقوله: «متحف النوبة جوهرة سمراء تفيض سحرا وجمالا فى جنوب مصر» .

(٧)

وإذا كان للدكتور أحمد نوار الحق فى أن يرتعش جسده وهو يزور المتحف بعد تسع سنوات من افتتاحه، خوفا من أن يكون قد

لحقه الإهمال، شأن مشروعاتنا الجميلة، والتي تبدأ برأقة وسرعان ما يعلوها القراب، وإذا كانت لدموعه الحق في أن تذرف بعد أن وجده معافاً أنيقاً شاباً !

ولى الحق، في أن أمشي مختالاً، بالرغم من إيماني بالآية الكريمة :
﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾^(١).

واعجابى بمقولة أبى العلاء المعرى
خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وجدتني أخرق ما أومن به، واختال، فإذا كان «نوار» قد دمع لرونق
ما شارك في صنعه، فأنا لدى أسبابي :
«إن في مصر متحفا بهذا القدر من الرونق، فضلا عن أن هذه
الحضارة التي شيدها أجدادى، تمثل حياة نهر، وحياة إنسان، وكفاح
استمر، وعُمر امتدَّ !

حلايب - أبو رماد - الشلاتين: أرض الأحلام

هبطت الطائفة أرض مطار برنيس، أنتظر بشوق رؤية الأرض،
الناس، وأنتظر بلهفة ملامسة واقع مصرى على حدود جنوبية
تبحث عن أمنها بشكل حقيقى، ألتهم التاريخ، وأقفز إلى الواقع، أصل
إلى نتيجة: هذه أرض أجدادى، وهى مفتاح الحل لأحفادى.

هذا التكوين الرائع، أرض ممتدة - ذهبية اللون فى المنظر
الإبداعي - صفراء فى الحقيقة، يجاورها البحر الأحمر بزرقة صافية،
فيقابلة امتداد جبل «علبة» بشموخ يحسد عليه.

نقطع نحو مائة كيلو إلى الشلاتين، الضلع الأول فى «مثلث الأحلام»
.. نلتقى بعيون الجمال الواثقة، الباحثة عن بعض من طعام لتختزنه
للزمن، وفى انتظارها على الجانب الآخر «سمسار» يبحث عن عمولة
من بيعها، لتستقر فى النهاية فى بطون تبحث عن لحم آمن، فى زمن
أنفلونزا الطيور!

تقابلنا الوجوه السمر

بعضها «كالح» بحكم التجاهل والتباعد الذى استمر طويلا، لكن
وجوه الأطفال ذى سمرة ناصعة، لأنها لامعة، وربما حالة بغد
أفضل!

«حسين» .. ابن العاشرة اصطحبنا فى جولة سياحية – على عربته الكارو وحماره. فى سوق الشلاتين، متطوعا، رافضا أن يتقاضى أجرا، لأننا على حد قوله ضيوفه، وفى المقابل طلب أن يرى الفندق الذى نعيش فيه، والأكثر: دورة مياهه!

«السوق» .. علبة صفيح، تحتوى على بهارات وبن وبعض أصداف، وسياح متناثرين جاءوا من مرسى علم.. وربما تحتوى هذه «العلب الصفيحية» أحلام البيزنس فى المستقبل!

نبحث عن مصريتنا فى وجوه الأطفال، ونبحث عن المستقبل على صفحات الرمال الممتدة، ونتشوق أملا فى وجوه الرجال المثبتين على هذه الأرض التى تستحق الحياة.

جئنا جميعا إلى حدودنا الجنوبية من مصر. من الحدود الشرقية «العريش» ومن وسط الصعيد «بنى سويف» .. ومن القاهرة «المركز» .

كنا رفقة عددها مائة. بعضنا موظفون فى الثقافة الجماهيرية، وكثير منا فنانون يبحثون عن أبجدية وجودهم الإبداعى، على هذه الأرض البكر.. وبعض منا صحفيون.

بعض من الرفقة ضمت: طلعت مهران وألبير إبراهيم ومجدى شلبى من كبار موظفى الهيئة، ومعهم الجميلان محمد عزت ووليد مهدى، ومن الباحثين المفتونين بالمنطقة من خلال تراثها الفلكلورى مسعود شومان، ومن الصحفيين أحمد هريدى ويسرى السيد والفتى سيد يونس.

كلُّ يبحث في وجه الآخر عن «الانفعال باللمحة التاريخية على هذه الأرض» .

كنا أول قافلة ثقافية تصل إلى هذه المنطقة الساحرة البكر، الهامة بوضعيتها الاستراتيجية، المثيرة للجدل في كتب التاريخ، وفي أجندة الساسة، الباحثة عن مكان لائق بها على خريطة الاهتمام المصري الرسمي والشعبي.

هي.. تحتاج إلى التنمية البشرية – كما يقول عمنا جمال حمدان – في تنمية الصحراء، عندما كان يبحث عن العلاقة الحميمة بين الأرض والبشر، والإنسان والوطن.

حدثنا في حماس قبل الرحلة، د. أحمد نوار رئيس الثقافة الجماهيرية.. «هي – أي الرحلة أو القافلة – تهدف إلى تحقيق الانتشار الثقافي، وتغطية المناطق الحدودية والنائية، كما تهدف إلى تحقيق التفاعل بين ثقافة المركز وهذه المناطق، لتنصهر في بوتقة واحدة، وتعطي ملمحا ومذاقا خاصا، لتعبر عن الثقافة المصرية بجذورها الثابتة والممتدة عبر القرون، وما تحمله من قيم وعادات وتقاليده، تسهم في النهاية في ترقية الوجدان المصري، وتعمل على تأكيد أصالته» .

يضيف.. «والقافلة تأتي في إطار نشاط مدروس للتوجه إلى جميع المناطق المحرومة من الثقافة» .!

(١)

أمضينا أسبوعا. ننتقل فيه من ضلع إلى ضلع آخر في المثلث،

من الشلاتين إلى أبو رماد إلى حلايب، المساحة الإدارية حوالى ٢٥٠ كم من جملة المساحة الكلية البالغة ١٨ ألف كم.. وهو يبعد عن القاهرة كثيرا كثيرا، يبعد مئات السنين، لأن عمره آلاف، آلاف السنين. المدهش.. تفاعل الناس.. هم عطشى للثقافة المصرية، برغم وجود «الدش» على كل منزل من «الصفيح» !

كل ليلة.. تتألق النساء. ويرتدى الرجال الملابس النظيفة. ويحوم الأطفال فى فرح!

وتضمنت القافلة فرقة بنى سويف للفنون الشعبية التى بهرت مواطنى المثلث، بألوان ملابسها الزاهية، وتابلوهات التى تمثل الحياة فى وادى النيل، خاصة الزراعة ومواسم الحصاد، فضلا عن الإيقاعات السريعة، والموسيقى الغنية بقرات الإنسان المصرى فى الوادى. وقد تأسست الفرقة - التى تغلبت على أحزانها عقب محرقة قصر ثقافة بنى سويف كما يقول مدرب الفرقة محمد الحريرى - عام ١٩٩٥. وتتكون من ٤٥ عضوا ما بين راقص وراقصة وموسيقيين ومنشدين.

وقد شاركت الفرقة على مدار العقد الماضى فى مهرجانات: بلغاريا وأسبانيا واليونان والمجر وإيطاليا، ومن برامجها: الفرعوني، الفلاحى، الصعيدى، الآلات الشعبية، المولد، الفرح الفلاحى، الحصان، والتمنورة.

أما فرقة سيناء البدوية للقرات التى جاءت من أقصى حدود مصر

الشرقية من «العريش» إلى أقصى حدود مصر الجنوبية في «المثلث» فقد أحدثت تأثيرا بالغاً لدى المواطنين، لتشابه العادات والتقاليد، وبدا التفاعل ساخناً بين الطرفين.

ويمكن القول.. إنها فرقة مميزة في تقديم التراث البدوي الأصيل، وكان لأغاني ومواويل حميد إبراهيم، مع الأداء الحركي لإيمان الدسوقي بملابسها العرايشية ذات الطابع الفلسطيني أثر بالغ في التجاوب، بل والفهم المشترك بين مواطني مصر في المثلث، وفناني مصر من سيناء الشمالية.

والفرقة التي حرصت على تجميع التراث السيناوي، تتكون من ٢٥ عضواً، وتعزف موسيقاها على آلات المجرونة والسسمية.

أما «الأراجوز» الذي قدمه أحمد شكوكو ابن شقيق الفنان الراحل محمود شكوكو، فقد ألهب خيال الكبار قبل الصغار.

والأراجوز.. وهو أحد أشكال مسرح العرائس، عاش طويلاً في مصر «بطرطوره» الطريف، وصوته المميز، وعصاه الصغيرة، التي يضرب بها من يحاوره أو يختلف معه.

وهو يقدم عرضاً فكاهياً ساخراً من «حدوتة أو نكتة» تعبر عن تناقضات المجتمع، ويؤكد علماء الآثار أن الأراجوز وجد في الحفريات المصرية القديمة، أي إنه فن مصري أصيل، نقله فيما بعد الأتراك أثناء احتلالهم مصر.

والمثلث.. يضم الشلاتين التى تقع على خط عرض ٢٢ شمالا، وقرية أبو رماد التى تبعد ١٣٣ كم من الشلاتين، وحلايب وتبعد ١٧٠ كم، ورأس حدربة وتبعد ١٩٠ كم، وأبرق وتبعد ١٣٥ كم، ومرسى حميدة وتبعد ٥٠ كم.. كما تبعد الشلاتين عن الفردقة بنحو ٥٥٠ كم، وعن مرسى علم ٢٥٠ كم.

ويبلغ عدد سكان المثلث - كما يقول العميد على شوكت رئيس مدينة الشلاتين مع نهاية عام ٢٠٠٥ نحو ١٥ ألف نسمة.. وتتخلل الحدود الإدارية للشلاتين منطقة سهل ساحلى يزداد فى الاتساع كلما اتجهنا جنوبا حتى قرية أم رماد، كما تمتد سلسلة جبال البحر الأحمر فى الاتجاه الغربى للشلاتين، ومن أهمها جبال «أبرق» الفرايد، أم الطيور، علبة، حمرا دوم، حدربة، ملدوب.

وتخترق سلسلة جبال البحر الأحمر عددا من الوديان أهمها: «سعفة، الرحبة، حوضين، أبو سفيرة، دعب، كرات، سرارة، الشلال، ميسح».. ويوجد عدد من الآبار الصالحة للشرب.. أهمها: «الجاهلية، أبايب، العمريب».

وتقع الشلاتين جنوب مدار السرطان، وذلك يؤدى إلى ارتفاع درجة الحرارة تسعة شهور فى السنة، ويوجد منفذان مع السودان «حدربة، سوهين».. ويربط منفذ حدربة بالشلاتين طريق أسفلتى بطول ١٩٤ كم، وتدخل منه البضائع الواردة من ولاية بور سودان شرق السودان، أما منفذ

«سوهين» فيتصل بمدينة الشلاتين «بمدق» بطول ٢٠٠ كم وتدخل منه البضائع الواردة من ولاية وادى النيل.

وأهم الواردات: الإبل، الحاصلات الزراعية، السمسم، الكمون، الذرة الرفيعة، الفلفل الأسود.

وتتملك مدينة الشلاتين وقراها مساحة تبلغ ٢٥٠ كم على ساحل البحر الأحمر، الذى يحتفظ بكميات كبيرة من أجود أنواع الأسماك، كما أن المنطقة غنية بالثروات المعدنية، ومقومات الصناعة.. ويطالب العميد على شوكت بوضعها على خريطة التعدين.

وهناك ثلاث حرف رئيسية هي الرعى والصيد والزراعة، والرعى.. هي الحرفة الرئيسية لأغلب سكان المثلث، إذ إنهم بدو رحل، يتجولون باستمرار حول الآبار والوديان، وتعتبر الإبل هي الحيوان الرئيسى فى المنطقة، وهناك نوعان:

١ - إبل الحمل وهي قوية العضلات، ضخمة السنام، ثقيلة الوزن.

٢ - إبل الهجن، وهي سريعة العدو، خفيفة، قليلة الشحم.

(٣)

وترجع الأصول السكانية الأولى لسكان المثلث منذ القدم إلى قبيلة «البجا» التى كانت تعيش منذ أكثر من أربعة آلاف عام، واستعان بهم الفراعنة فى الدفاع عن الوطن، ولفظ «بجا» يعنى «المقاتل القوى الشجاع» !

ومن أهم فروع البجا:

١ - الهدندوه

٢ - الأمراء

٣ - الحلانقة

٤ - بنى عامر

٥ - العبابدة

٦ - البشارية

وتنتشر الفروع الأربعة الأولى من قبائل البجا فى السودان، وأثيوبيا، فيما ينتشر الفرعان الأخيران فى السودان ومصر، ويتحدث العبابدة اللغة العربية التى تتضمن بعض المفردات البيجاوية، أما البشارية فيتحدثون اللغة البيجاوية «الطانة» .. وقليل منهم يتحدث العربية مع البيجاوية. وتنقسم قبيلة «البشارية» إلى فروع أهمها: الحمادوراب، العلباب، الأمراء، الشنتيرات، ويسكنون الصحراء الشرقية، أما قبيلة «العبابدة» فينقسمون إلى بطون أهمها: الشناتير، العبوديون، المليكاب، العكارمة، «العشاب» ، وقد اندمجت قبيلة العبابدة مع سكان وادى النيل، ماعدا «العشاب» الذين يعيشون فى الصحراء الشرقية، من القصير إلى آخر حدود مصر مع السودان.

أما قبيلة «الرشايدة» .. فهى غير معترف بها على المستوى الرسمى. من حيث الحقوق والواجبات، وهم يعيشون بمعزل عن البشارية والعبابدة، وهم لا يمتهنون الصيد، وزيارتهم لمدينة الشلاتين تتم بتصاريح، ولعدة أيام، ثم يعودون إلى خيامهم، ويعملون بالتجارة

والرعى ، وترجع أصولهم إلى أصول سعودية تنتمى إلى آل رشيد، وقد
نزحت إلى مصر عندما تولى آل سعود الحكم.

ولم تختلط قبيلة الرشايذة مع الشعوب الأفريقية، ولم تتأثر بهم
فى الملامح الجسدية مثل لون البشرة والعيون والشعر الأسود المسترسل،
ولا تتمتع القبيلة بالحقوق التى يتمتع بها قبيلتا العبابدة والبشارية،
لكن يقدم لأفرادها - بواسطة الوحدة المحلية - الخدمات الإنسانية
وتصاريح الإقامة، لأهداف سياسية!

وتواجه قبيلة الرشايذة مشكلات منها:

- عدم التمتع بحرية الانتقال كغيرهم.
- عدم وجود بطاقات إثبات شخصية لأفرادها.
- عدم توفر الكهرباء أو مياه الشرب مع نقص الرعاية الصحية!

(٤)

وتنسب قبيلة البشارية إلى جدهم «بشار بن كاهل» ويرجع نسبه
إلى قبيلة «الكواهلة» التى تنحدر من نسل الزبير بن العوام، وقد تزوج
بشار من امرأتين من «البجا» .. الأولى: «أم ناجى» والثانية «أم على»
.. وهم أولاد عم العبابدة، ومنذ أيام هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم
صاروا قبيلتين منفصلتين.

وتنقسم قبائل البشارية إلى قسمين :

١ - بشارية أم ناجى.

٢ - بشارية أم على.

ويسكن بشارية أم على شمال خط ٢٢ ، وأهم فروعهم «الشنثيراب» ولفظ «آب» يعنى «الانحدار من الجنوب» .. أما بشارية أم ناجى فيسكنون بعد خط ٢٢ داخل السودان ووسطه.. أما جنوب الشلاتين حتى خط عرض ٢٢ على ساحل البحر الأحمر ، فيسكنها قبائل الحمد أوراب.

وقد نزحت قبائل البشارية من الجزيرة العربية – فى وقت مبكر – إلى الساحل الأفريقى ، وقد اختلطوا بالزنوج ، وتزوجوا منهم ، وأخذوا عنهم لغة «البجا» .. ولأنه لا توجد مواصلات بين أجزاء المثلث ، فقد انغلقوا على أنفسهم ، وكونوا جماعات منغلقة ، يتحدثون لغة البجا ، ومع مرور الأيام ، اندثرت اللغة العربية ، وصاروا لا يتكلمون سوى اللغة الزنجية ، أو لغة البجا.. وتذكر حكايات التاريخ أن البشارية هم «حراس الذهب» منذ أيام الفراعنة !.

(٥)

وفى المشهد العام تبدو الصحراء الشاسعة – لأول وهلة – كما لو أنها تفتح ذراعيها لأى قادم إليها ، ليقيم عشوائيا فى أى مكان ، أو ليدعى ملكية من يشاء ، خصوصا أنه لا يلوح فى الأفق أى مظهر من مظاهر الملكية الخاصة ! .. غير أنه بالنظرة المتأنية يتضح أن الأمر مختلف إلى حد بعيد ، فمناطق الإقامة والرعى فى تلك الصحراء ، وإن كانت عرضة باستمرار للتغير ، بانتقال قاطنيها ، يراعى عند اختيارها عدة اعتبارات ، تعود أغلبها إلى الظروف البيئية والعوامل الطبيعية ، ويعود البعض الآخر إلى عوامل اجتماعية وظروف سياسية ،

وكلها عوامل يدركها البدوى جيداً، باعتبارها تراثاً حضارياً ينحدر إليه عبر الأسلاف.

ولكى يقيم البدوى مسكنه المؤقت أو شبه الدائم، الذى يتألف عادة من بيت من الشعر، أو من الجدران النباتية، أو من الصفيح، ينبغى أن يختار موقعا منبسطا على ربوة عالية، على حافة الوادى الجبلى، أو على مصطبة أحد الأودية الفرعية، وذلك تفاديا لمخاطر السيول الجارفة والمفاجئة من ناحية، وابتعادا عن مناطق زحف الكثبان الرملية من جانب آخر، فضلا عن أن اختيار الموقع يجب أن يكون قريبا من مصادر المياه الطبيعية المتمثلة فى الآبار، وإن كانت الإبل ترعى فى مساحات واسعة، وبالأيام، وتعود من تلقاء نفسها إلى أصحابها.

فضلا عن ذلك، وفى الوقت الراهن، وطبقا لدواعى الأمن، والظروف السياسية التى تحكم العلاقات المصرية السودانية، وما نجم عنها من مواقف غير طبيعية، فإنه ينبغى عند اختيار الموقع للإقامة والرعى، أو لكليهما، خصوصا فى المناطق القريبة من الحدود الفاصلة بين البلدين، أن تتم بالتنسيق مع قوات الأمن وحرس الحدود العاملة فى تلك المناطق.

ويشاهد فى الأماكن الحضارية التقليدية فى الشلاتين، أبو رماد، حلايب، بعض المظاهر المصرية المتمثلة فى المنازل النمطية والطرق المخططة، ويمكن أن نطلق عليها مجازا «قرية».. وتتكون كل قرية أو حلة «أى حى» من عدد من العائلات الكبيرة أو «البدنات» التى تقوم على نظام الانتساب فى خط واحد، وهو دائما «الخط الأبوى»..

فكل جماعة يرتبط أعضاؤها ببعض، بروابط الدم العاصبة، أى إنهم ينحدرون فى خط الذكور من سلف مشترك تعرف جماعته باسمه. مثل عائلة «الفرحانات» فى الشلاتين، والشويمات والجامعات فى أبو رماد.

وتتماثل مساكن العباددة مع البشارية إلى حد كبير، فحياة البداوة تتطلب أن يكون المسكن بسيطا، يسهل حله من وقت لآخر، ومن مكان إلى مكان، وهى تتكون من الخيام المصنوعة من الحصير المجدول من سعف النخيل، وبعض من القماش السميك، أو الخيش، وأحيانا من صوف الغنم أو جلد الماعز، أو وبر الإبل، ويختارون إقامتها بعيدا عن مخرات السيول.. ومن عاداتهم ألا تكون أكواخهم ملاصقة لأكواخ الآخرين.

والطريف.. أن النساء هن المسئولات عن تجهيز الخيمة من معظم الخامات التى تصنع منها، والمنقولات التى تحتويها، وعليهن أثناء تجوالهن بحيواناتهن الصغيرة أن يجمعن فروع الأشجار المناسبة، والأعشاب الجافة اللازمة لعمل الهيكل الذى يقيمه الرجال، وهذا هو الإسهام الوحيد لهم!

كذلك، فإن النساء يجلدن الحصير، وينسجن الأقمشة، ويضفون الحبال، وهن يقمن بتغطية هيكل الخيام من الخارج وكسوته من الداخل.

وينتشر الزواج بين العباددة والبشارية. حتى يتفاعل كل من القبيلتين مع الآخر، فدائما زواج البنت من ابن عمها، أو أحد أقاربها،

ويتم هذا الزواج بناء على اختيار «الأب» للعروس، عند بلوغ الابن سن السادسة عشرة، والفتاة نفس السن.

واختيار الأب للعروس، هو عرف سائد لدى شباب القبيلة، ويستمر معها، فإن لم يحدث تفاعل بين الاثنين، يتركها ويتزوج غيرها، لكن فى هذه المرة، تكون من اختياره هو!

وتقاليد الزواج تتناسب مع الحالة الاقتصادية والجغرافية، فالمهر الذى يدفع للعروس «ناقتان» يقدمهما والد العريس: واحدة «مقدم صداق» والثانية «مؤخر» .. وحين يتم الاتفاق لا توجد فترة خطوبة، وتبدأ مراسم الزواج، بعش الزوجية ويكون على شكل خيمة، بها بعض الأغذية من الصوف وجلد الحيوان، ويستمر الفرح سبعة أيام، ولضيقة ذات اليد، يكتفى بثلاثة أيام هى «الخميس والجمعة والسبت» .

ويسجل عقد الزواج شيخ القبيلة، ومن العرف السائد إقامة العريس عند أهل العروس «سنة كاملة» حتى تنجب طفلها الأول، ثم تذهب معه إلى قبيلته، أما إذا تأخر الإنجاب، فيتزوج غيرها، لذلك يمثل تعدد الزوجات نحو ٦٥ بالمائة من حالات الزواج!

(٦)

والحدود المصرية - السودانية، تحتل فصولاً فى تاريخ الحدود، والمدهش أن الحديث عن الحدود بين البلدين قبل أول يناير ١٩٥٦ .. كان يعد دربا من دروب الخيانة الوطنية، باعتبار أن وادى النيل، يمثل وحدة واحدة شمالاً وجنوباً.

لكن ذلك لا يمنع من الإقرار بحقيقة أن الحدود كانت موجودة، ومنذ زمن بعيد، ويروى أستاذ التاريخ يونان لبیب رزق القصة بقوله: «تصور غير صحيح ذلك السائد بين جموع الباحثين في شئون العلاقات المصرية السودانية أن اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩، بين مصر و انجلترا هى التى وضعت خط عرض ٢٢ شمالا كحدود بين البلدين، فقبل ذلك كان هناك خط آخر لتلك الحدود بين عرض كامل، وعلى وجه التحديد ٥٥ من ٦٠ من خط العرض، ولصالح مصر» .

يضيف: «وقبل ذلك بنحو خمسين سنة، وتحديدًا في ١٣ فبراير ١٨٤١ ظهرت على الخرائط أول حدود بين البلدين، وهى حدود ارتبطت بالتسوية الشهيرة التى تمت بين القاهرة واستنبول» .. ومعروف تاريخيا أن هذه التسوية تمت على مرحلتين. مؤتمر لندن ١٨٤٠ والذى وضعت فيه الدول الكبرى الخطوط الأساسية، وفرمان الباب العالى الصادر في ١٣ فبراير ١٨٤١، والذى جسد قرارات مؤتمر لندن» .

وجاء فى فرمان فيما يخص السودان القول بأن: «سدتنا قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة، وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر، ولايات مقاطعات النوبة والدارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة، ولكن بغير حق التوارث، فبقوة الاختيار والحكمة و التى امتزمت بها، تقومون بإدارة هذه المقاطعات وترتيب شئونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلىن،

وترسلون كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حاوية بيان الإيرادات السنوية جميعها» .

ويفسر د. يونان هذا فرمان بقوله: «وإذا كان هذا فرمان الشهير لم يشير إلى حدود مصرية سودانية، فلم يكن جنوب الوادى حتى ذلك الوقت قد أطلق عليه السودان، وإنما كان ينظر إليه باعتباره مقاطعات ملحقة بمصر، فإنه أشار إلى حدوده الأخيرة، أو ما كان يعرف وقتئذ بمصر الأصلية، والأكثر من ذلك أن الباب العالى ألحق بالفرمان خريطة تبين هذه الحدود» .

وتؤكد الحقائق التاريخية أن وادى حلفا استمر قبل عام ١٨٩٩ سواء على المستوى العسكرى، أم الصعيد السياسى داخل نطاق أراضى «مصر الأصلية»، حتى جاءت اتفاقية ١٨٤١، وزحزحت خط الحدود إلى ٢٢ درجة شمالا، وبينما كان وادى حلفا يمثل أولى نقاط مصر الجنوبية على نهر النيل، فقد كانت «حلايب» تمثل أولى النقاط على البحر الأحمر.

ويرصد د. يونان ما نشرته صحيفة الأهرام من أخبار ما بين شهر أبريل ١٨٨٨ ومايو ١٨٨٩، فقد حدث أن أرسل المهديون السودانيون قوة لهم لاحتلال آبار حلايب، ولم تكن مصر تعول كثيرا على هذا التصرف، لو أنها ارتأت أن تلك الآبار تقع جنوب خطوط «مصر الأصلية».. وقد قوبلت محاولة الاحتلال المهدوى بإجراء عسكرى مصرى عاجل، حيث بعث السردار بقوة عسكرية اشتركت مع بشير بك شيخ قبيلة العبابدة لطرد المهيدين من المنطقة، وتنظيفها منهم - على حد تعبير

الأهرام - وإذا كانت هذه المبادرة العاجلة تدل على فهم مصر، باعتبار
حلايب مصرية، فإن الإجراءات جاءت في ثلاثة أخبار:

١ - في ١٠ مايو ١٨٨٩: «جاء من حضرة الكولونيل هولد سميث في
سواكن، أن طابية حلايب، وهي بلدة تبعد نحو ٢٠٠ ميل من سواكن
سيتم بناؤها بعد سبعة أيام، أما الدراويش - ويقصد المهديون -
الذين كانوا يحاولون الهجوم على تلك الأنحاء، فقد تأخروا عنها،
واتخذوا لهم مركزا في نقطة تبعد عن حلايب بنحو عشرين ميلا، إلا
أنه يخشى أن يعاودوا الكرة في الجهات المذكورة، أما قبيلة البشاريين
فمنتشرة في طلب المرعى.

٢ - والخبر الثاني نشر في ٢٩ مايو ١٨٨٩ ونصه: «ارتأى سعادتلو
هولد سميث باشا قومندان سواحل البحر الأحمر بوجوب مساعدة سكان
قرية حلايب مما يسد عوزهم إلى أمد قليل، ويمكنهم من القيام بالأعمال
المساعدة في الكسب، وذلك على إثر ما أصابهم من المضار والفاقة في
الموقعة التي جرت بينهم وبين الدراويش».

٣ - ونشر في ٣١ مايو .. وجاء فيه: «قرر سعادتلو سردار الجيش
المصري بأن قبيلة البشارية القاطنة جهة حلايب، بلدة بقرب سواحل
البحر الأحمر، حفاة عراة، لا يملكون قوت يومهم، وأن حالتهم هذه
تستدعي شفقة الحكومة عليهم ومساعدتها لهم، وارتأى أن يتاح
لسعادته إنفاق مبلغ ٢٠٠ جنيه في الطرق الضامنة سد عوزهم إلى أجل
محدود، وقد عرض قراره على مجلس النظار، فأجاب قراره».

ويعلق د. يونان لبيب رزق على الأخبار الثلاثة بقوله: «وفضلاً عما تضمنته هذه الأخبار من التأكيد على تبعية قبائل البشاريين لمصر، بحربهم ضد الدراويش، وبطلب المعونة من حكومة القاهرة، فإنها قدمت كل البراهين القانونية التي أكدت علىصرية هذا الميناء، وتلك المنطقة من خلال ممارسة شتى ألوان السيادة عليها» .

يضيف: «وفي حالة حلايب - تحديداً - فإن أفخاذ قبيلة البشارية الواقعة شمال خط ٢٢ تتنوع روابطها بمصر، أكثر مما ترتبط بالسودان، والكلام من وثيقة بريطانية تتحدث عن بدعات البشارية المقيمة شمال خط ٢٢ .. وهي على النحو التالي:

□ جاء عن بدنة «الحمادوراب» .. أن لهم علاقات متنوعة مع العباددة في مصر، ويتصاهرون معهم كثيراً، ولهم قرى دائمة في أسوان ودراو وغيرها من الأماكن على النيل.

□ الألياب .. وجاء عنهم أن لهم نفس الروابط مع العباددة التي للحمادوراب.

□ الأمراب .. وجاء فيهم أن لهم علاقات واضحة مع أسواق جنوب مصر، ولم يبق بعد ذلك غير الشانتيراب الذين جاء عنهم في الوثيقة «أنهم يتنقلون عبر خط ٢٢ لأغراض قبلية» .

ويصل د. يونان إلى نتيجة مفادها: «لعل ما جاء في هذه الوثيقة يشير إلى حقيقة لم نكن ندريها من قبل، وهي أن الترتيبات الإدارية لم تتم لأسباب بشرية متعلقة بمصلحة أبناء القبائل المقيمين شمال خط ٢٢ ..

بقدر ما تمت لأسباب إدارية تقتل برغبة حكام الخرطوم البريطانيين
فى التعامل مع ناظر واحد للبشارية الذين آثروا أن يضعوهم جميعا فى
سلة إدارية واحدة» ١.

(٧)

ويمتلك د. «السيد فليفل» صورة ذهنية عامة ترى أنه منذ أن وطئت
أقدام المستعمرين أرض السودان، سعى جاهدين إلى فصله عن مصر،
وهو ما ظهر جليا فى اتفاق الحكم الثنائى ١٨٩٩، حيث ظهر خط ٢٢،
كخط فاصل بين كيانى وادى النيل - مصر والسودان - وقد تتابعت
الإجراءات البريطانية الساعية إلى تأكيد هذا الاتجاه.

ويعدد فليفل الإجراءات بقوله: تقليص عربى الاتصال بين
الجانبيين إلى أدنى مستوى ممكن، التضييق على التجار من الجانبين
إذا ما سعى إلى الاتصال، استخدام مقاسات مختلفة لخطوط السكك
الحديدية، تأسيس كلية جوردن التذكارية بالخرطوم وجعل التعليم
فيها باللغة الانجليزية، وهو ما أفرز صفوة سودانية جديدة راحت
تبحث - بمقتضى الارتباط الثقافى بالانجليز - عن مستقبل للسودان
بشكل منفصل.

ويرى د. «محمود أبو العنين» أن النزاع حول مثلث حلايب
والشلاتين ارتبط بعاملين أساسيين الأول يتمثل فى استقلال السودان
عام ١٩٥٦، بعد نحو قرن وثلاث من الارتباط السياسى بمصر، والثانى
تظهر آثاره مع الأزمات المختلفة التى اعترت مسيرة العلاقات المصرية

السودانية.. ويشير إلى إنه على مدار ١٣٦ سنة منذ أن فتح محمد علي السودان، وحتى استقلاله لم ينظر المصريون إلى السودان إلا من خلال منظور وحدوى، سواء أن السودان جزء من الدولة المصرية أم بمصطلح وادى النيل، وقد شارك كثير من السودانيين فى هذه النظرة، بالرغم من الفترة الاستثنائية للثورة المهدية فى السودان.

أما فيما يتعلق بمثلث حلايب.. فتذكر الحقائق التاريخية الموثقة أنه نشأ بمقتضى قرار وزير الداخلية المصرى الصادر فى ١٩٠٢/١١/٤، وطبقا لهذا القرار، تم وضع المنطقة الواقعة فى الركن الجنوبى الشرقى لمصر، والمحاذية لساحل البحر الأحمر «منطقة جبل علبه أو مثلث حلايب» تحت إدارة المحليات السودانية بغرض توحيد إدارة شئون القبائل، ولم شمل جماعة البشارية المصرية، مع كتلتهم الرئيسية الواقعة داخل الجانب السودانى.

ووفقا لهذا التعديل الإدارى، تم تحديد مناطق البدو فى الإقليم لتضم ما يعرف بمثلث حلايب المصرى، وقاعدته تقع على خط ٢٢ شمالا، وطوله نحو ٣٠٠ كم، وضلعه الشرقى يقع على ساحل البحر الأحمر بطول ٢٠٠ كم، بحيث يبدأ من جنوب حلايب على خط الحدود حتى بئر الشلاتين فى الشمال، أما الضلع الغربى، فهو متعرج، لكن على شكل خطوط مستقيمة تقريبا، حيث يمر الخط ببئر «منيحة» ثم جبل «تجروب».. ثم جبل «أم الطيور» فجبل «الديجا».. حتى يصل إلى خط التقاطع مع خط الحدود السياسية.

- والمثلث الذى يشكل قيام حلايب، يبلغ وفق التحديد ١٨ ألف كيلو مترا وهى مساحة تقارب مساحة دلتا النيل، كما يمتلك جبهة بحرية على ساحل البحر الأحمر بطول ٢٠٠ كم، مواجهة تقريبا لمنطقة الحجاز بالسعودية. ويقدر عدد سكانه وفق إحصاء ١٩٩٧ نحو ١٣,١١٨ نسمة ينتمون إلى قبائل البشارية والعبادة، وأعداد قليلة من قبائل أخرى، ويشكل البشاريون نحو ٧٠٪ من السكان.

- مثلث جبل «بارتازوجا» .. وقد نشأ بمقتضى القرار الإدارى لوزير الداخلية المصرى فى ٤ / ١١ / ١٩٠٢. وإعمالا على نفس المبدأ القائم على فكرة توحيد القبائل، حيث تقرر وضع قبائل العبادة التى تعيش جنوب خط ٢٢ شمالا لنفس النظام الإدارى المصرى التى تخضع لهم كقوتهم الرئيسية التى تعيش على الجانب المصرى من خط الحدود.

وهذه المنطقة تقع غرب مثلث حلايب على الجانب السودانى وتشكل جيба داخلها حبيبا داخل الصحراء، مساحتها غير دقيقة، لكنها تقترب من تسع مثلث حلايب، وتعتبر منطقة جبلية وعرة، حيث تبدأ عندها فروع وادى العلاقى، وتقتطنها غالبية من قبائل العبادة ذات الأصول المصرية.

(٨)

كنت فى الخرطوم، عندما صرح الرئيس السودانى عمر البشير لصحيفة خليجية فى شهر أغسطس ٢٠٠٢ بأن «مثلث حلايب سودانى،

وأن الأمر برمته معروض في مجلس الأمن» وقتئذ سمعت تفسيرين، أحدهما دبلوماسي من الدكتور مصطفى عثمان وزير الخارجية بأن الأمر لا يستحق زوبعة، وربما أرادت الصحيفة «إشعال الموقف» فطرححت المسألة على هذا النحو.. نحن - والكلام لعثمان - نريد منطقة المثلث، منطقة تكامل، ودافع بشدة عن وجهة نظر البشير التي تصب في ذات الاتجاه.

أما التفسير الثاني.. فسمعت من بعض المحللين السياسيين السودانيين الوجوديين.. بأنه تأمر أمريكي على العلاقات المصرية - السودانية، واستغلال للموقف المصري من اتفاق مشاكوس الذي وقع بين النظام السوداني والحركة الشعبية، لأن وجهة نظر مصر كانت تأخذ بالحل الشامل وعدم استبعاد أو إقصاء أي قوى سودانية من هذه القضية.

وقد ارتبط النزاع على الحدود في مثلث حلايب، بأزمات العلاقات المصرية السودانية، وفترات التوتر بعد استقلال السودان عام ١٩٥٦، فقد قادت حكومة الثورة في مصر - كما يقول الباحث د. محمود أبو العينين - مفاوضات صعبة مع الجانب البريطاني من أجل تحقيق الجلاء عن وادي النيل كله، سواء في مصر أم السودان، وتم البدء بالسودان، حيث انتهت المفاوضات بتوقيع اتفاقية السودان في ١٢ فبراير ١٩٥٣، وأعقبها الوصول إلى اتفاقية الجلاء في مصر في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤.

غير أن الملاحظات التي أحاطت بعملية تقرير المصير في السودان، وما صاحبها من هجمات إعلامية متبادلة بين البلدين، وما أسفرت عنه من تصميم السودانيين على الاستقلال، وتخلي الاتحاديين عن مبدأهم وهو الاتحاد مع مصر.. كل هذه الأوضاع ساهمت في تبديد أحلام وحدة وادي النيل.. ومع رضح الأزمات صعودا وخمودا نرى:

- ١ - ينشب النزاع ويتصاعد في حالة وصول حكومات سودانية مناوئة لمصر، ونرصد حكومة عبد الله خليل وحزب الأمة ١٩٥٨، ووصول الجبهة الإسلامية للحكم عقب انقلاب يونيو ١٩٨٩.
- ٢ - يخمد النزاع حول حلايب في فترات استقرار العلاقات.
- ٣ - في كل الحالات.. تسعى مصر وهي تدير النزاع إلى عدم تدويله، والسيطرة عليه وضبطه في الإطار الثنائي، حفاظا على خصوصية العلاقة بين البلدين.

(٩)

ونقل شهادتين

هما تأكيد على هذا التلاحم المصري السوداني، وتأكيد في المنظور السياسي والحدودي على مصرية حلايب وشلاتين.

الأولى: لسفير السودان السابق في مصر أحمد نور، والتي اعترف بها في «ندوة الحدود المصرية السودانية بالقاهرة عام ١٩٩٧» وهي تفيض رقة وحميمية، هي طابع السودانيين الودودين.

يقول: «أشعر بحساسية بالغة عندما أتحدث في موضوع الحدود، لا سيما وأنا أقيم في قرية على الحدود، يقع نصفها شمال خط ٢٢، ونصفها الثاني في جنوبه! .. وعلى رغم هذه الحساسية فقد أخذت من كلا البلدين خيرها وإيجابياتها، فقد تعلمت في مصر، عندما كان التعليم فيها منارا للعالم الإسلامي، واشتغلت في السودان، عندما كان العمل فيها هدفا لكل مصري وسوداني» .

يضيف: «هذه ليست انتهازية، لأنني لازلت أعتبر مصر والسودان بلدا واحدا، ولا شك أنني عانيت من ذلك، وأعتقد أن وجود السكان والقبائل في مناطق الحدود يساعد على الاستقرار» .

أما الشهادة الثانية، فصاحبها رجل سوداني جميل، جاب السودان شرقه وغربه وجنوبه وشماله كرجل تعليم، لكنه استقر في عام ١٩٩٠ في المثلث، ويدير مدرسة ابتدائية في «أبورماد» ولم يبرح المنطقة منذ ذلك التاريخ.

هو فنان تشكيلي فطري.

أسأله: هل أنت سوداني؟

يجيب: لا

أعاود السؤال، وهل أنت مصري؟

يقول: لا

إنن.. أنت من؟

يقول الفاضل خالد أشهر «معلم» في المثلث في العقدين الأخيرين،
أنا ابن هذه المنطقة، أعلم أبناءها، الذين تخرج فيه الكثيرون،
وعادوا ليعملوا معي في المدرسة، أنا مصري سوداني، أو قل سوداني
مصري، أقرب من الستين، اخترت الحياة في هذه المنطقة الأثرية
إلى نفسي وعقلي، أرسم عندما تتاح الظروف، درست التاريخ جيدا،
وخرجت بنتيجة: أننى من هنا، وأولادى هنا، بالرغم من أننى ولدت
وسط السودان!

..

يبقى القول:

هذه أرض أجدادى.. ومفتاح الحل لأحفادى..!

الأقصر: الحياة والخلود

يرن في أذنى قول د. سمير فرج رئيس مدينة الأقصر – هاتفيا –
نحن أولى بتاريخنا، بترائنا، وأحق بحضارتنا.

ونفس الجمل القاطعة التى تحمل معنى التحدى، أسمعها من عاشق
الأقصر الفتى الشاعر أحمد فؤاد جويلي. وكأنهما اتفقا على هذه الحماية
المستفرقة فى حب هذه الأرض، حتى وإن كانت نزعتها شديدة
الشوفينية، هنا المهم الوعى بالتاريخ، بالأرض، والأكثر بالوطن.

حزمت أمرى للسفر إلى الأقصر، مدينة الحياة والموت، والأكثر
شمسا وخلودا، وكنت قد زرتها خلال الشهور الخمسة الماضية ثلاث
مرات، لكن هذه المرة تكون الزيارة مع سبق الإصرار والترصد، للتعامل
التاريخى والمستقبلى مع المدنية، الناس، الأرض، الأثر.

وأذكر، وأتذكر، أول زيارة لى للأقصر فى شتاء ١٩٦٥، عندما
كنت طالبا بمدرسة المنصورة الثانوية، وكان ضمن منهج الدراسة –
حينذاك – زيارة الأقصر وأسوان، وذلك لتنشيط الذاكرة التاريخية،
وخلق حالة الانتماء لهذا الوطن.

وأتذكر دموع جدتى، وهى تثننى عن هذه الرحلة، لأننى سأغيب عنها
لأول مرة خمسة عشر يوما، «أكيد، أكيد يا ولدى المشوار طويل، والبلاذ
بعيدة، وأنت مازلت صغيرا، تبكى بدموع حارة، وتقسم بغربتى»!

فى حين شدت من أزرى أمى؁ وقالت لجدتى : «يا خالتى؁ خليه يشوف الدنيا.. ويتعلم» !

تذكرت هذا المشهد العاطفى وأنا على متن الطائرة؁ وشتان ما بين الزمان ووسيلة السفر؁ منذ أربعة عقود كانت الرحلة تستغرق من المنصورة إلى الأقصر نحو أربعة وعشرين ساعة؁ والآن بين القاهرة ومحطة وصولي.. ساعة!

يوقظنى من غفوتى وذكرياتى صوت احتكاك عجلات الطائرة بأرض مطار الأقصر؁ وتأهب كل ألوان البشر لمغادرة الطائرة.

(١)

يواجهنى شروق الشمس؁ إنه صباح جديد يطل على مدينة الحياة والموت.. لقد بعثت فى الشمس الحياة؁ وفى لحظات الإشراق؁ يستشعر الإنسان جمال الصباح المنتصر للحياة.

وشروق الشمس وغروبها فى الأقصر يمثل نقطة التقاء بين سلسلة ثقافات دينية ثلاث؁ فغروب الشمس فى عالم الأموات يمثل ثقافة الديانة المصرية القديمة؁ وعودة الشمس من رحلتها الغاربة؁ تعنى بعث الدفء والحياة؁ وهى تمثل فى العقيدة المسيحية «عودة المخلص».. أما فى الثقافة الإسلامية؁ فالموت والحياة ربط بين ما هو باق؁ وما هو زائل؁ إنها تعادل الزمن التاريخى مع الزمن الكونى.

اللحظة

لحظة الشروق

والشعور تحديداً : مع وهج النور الشفاف، تجسد الجمال، والأفق
الخالد بالأقصر امتد فوقه حركة الشمس، ويقطعه النهر المتدفق في
لحظة الشروق !

وتتقاطع مع اللحظة الشاعرة، واللحظة الساحرة المبشرة بالحياة،
مع شروق شمس يوم جديد في الأقصر حال وصولي.. صوت الشاعر
جويلي، وقوله :

من التراب أقلع الشجر

وأقلعت حقول

أتى المزارعون

مضى ربيع لدحهم إلى الأفول

وغاصت الجذور نحو باطن.. الثرى

وينجلي الجدار عن نقوش قارة جديدة من النخيل والسنابل

وطار - في النقوش - سرب طير

وجاء صوته مموسقا.. مفردا

لك الجمال أيها الوريث

لك الجمال...

(٢)

وتبدأ تباشير الرحلة من اتصالين هاتفيين لسمير فرج وأحمد
جويلي حول هذه الحملة المستعرة في الإعلام الفرنسي، وكان قدرنا
أن «نكون رد فعل» !

الحملة تهاجم مشروع تطوير الساحة الأمامية لمعابد الكرنك حيث حولتها العشوائيات إلى بؤر من الإهمال، وتهاجم - أيضا - ما يحدث فى البر الغربى، وتصف من سيتم نقلهم إلى مساكن جديدة بها مياه وكهرباء بأنه «تهجير» .

حملة الفرنسيين فى الميديا الفرنسية، ظاهرها الرحمة، وباطنها التضليل.

فى الظاهر حماية الآثار المصرية باعتبارها تراثا إنسانيا عالميا. والباطن.. مصالح البعثة الفرنسية فى الأقصر، حيث تحتل مساكنهم أهم وأجمل بقعة على النيل، فى مواجهة الدير البحرى، وتغلق الطريق على معابد الكرنك فى رؤيته للبر الغربى، والدير البحرى، وتقف حجر عثرة أمام الرؤية المقدسة لمساكن الأموات.

ونقطة البداية فى التطوير الدراسة التى أعدها البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة - والتى تستهدف التخطيط المستقبلى المتكامل لمدينة الأقصر حتى عام ٢٠٣٠ بأبعاده الثقافية والاقتصادية والسياحية، وبحث متطلبات المدينة واحتياجاتها المستقبلية على عدة مراحل.

ومن أهم بنود هذه الدراسة تفريغ المناطق الأثرية من العشوائيات المنتشرة فوقها وبجوارها، خاصة وأن الأقصر مقامة على مدن أثرية كاملة لأقدم حضارة عرفها الإنسان، وتستهدف الخطة - كما يقول د. سمير فرج - إعداد المدينة كمتحف مفتوح.

ظلت الدراسة حبيسة الأدراج سبعة أعوام لعدم وجود موارد مالية، خاصة أن تكاليف تنفيذها يصل إلى سبعة مليارات جنيه.

بدأ سمير فرج - بإرادة المقاتل وروح الفنان - فى إزاحة التراب عن هذه الخطة بعد أن عرضها على رئيس الوزراء د. أحمد نظيف، ومع تحمسه بدأ فى إزالة عشوائيات وفقا للقرارات الإدارية التى كانت متجمدة، لا سيما وأن القرار الجمهورى رقم ٢٥٣ لسنة ١٩٨٩ يعتبر «الأقصر مدينة ذات طابع خاص» .

بدأت حركة التطوير تدور مع حماس سمير فرج، وكان فى قلبها «تطوير الساحة الأمامية لمعابد الكرنك» التى تستهدف إعادة الكرنك إلى ما كان عليه قبل خمسة آلاف عام.. وباعتبار أن الفرعون كان يقف فى بهو الكرنك ساعة الغروب ليطل مباشرة على معبد الدير البحرى فى البر الغربى عبر نهر النيل.

واقضى الأمر شجاعة إزالة ما يقف أمام بهو الكرنك، وبالتالى، فقد تمت إزالة المباني الإدارية فى المنطقة، منها: تفتيش الآثار، ومبنى الصوت والضوء، ومركز الشباب، ومدرسة إعدادية، واستراحة لموظفى هيئة الآثار، إضافة إلى ٤٨ منزلا ومحلا عشوائيا تقع جميعها فى مواجهة المعابد، وتعوق الرؤية.. وقد تمت إزالة ٤٢ بازارا ومنزلا.

ومطلوب أيضا.. إزالة مركز شرطة الأقصر، ومسجد وكنيسة وقصر الثقافة، ومساكن البعثة الفرنسية التى تسمى «القرية الفرنسية»

والتي تقع على النيل مباشرة وتحجب الرؤية عن معابد الكرنك، فضلا
عن منزل الأثرى الفرنسي جورج لوجران المتوفى عام ١٩١٧.
وعند قيام المجلس الأعلى لمدينة الأقصر بطلب إزالة المساكن المصرية
التي يقيم فيها الفرنسيون فضلا عن منزل لوجران.
قامت الدنيا ولم تقعد. !

رفض الفرنسيون بشكل قاطع الإزالة، لأن منازلهم مقامة على
النيل مباشرة، ورفضوا جملة وتفصيلا مشروع التطوير، وصوروا
الأمر في الميديا الفرنسية على أنه استيلاء على الأملاك الفرنسية،
بالرغم من أنها مصرية مائة بالمائة! وقالوا لسمير فرج الذي نقل لي
الحكاية بمرارة «البيوت موجودة منذ سنين.. لماذا تريدون - الآن -
إزالتها» . !

كما رفض الأثريون الفرنسيون «من باب الوصاية» إزالة المساكن
العشوائية المقامة فوق مقابر الأشراف والتي تصل إلى ٦٠٠ مقبرة
بمنطقة القرنة بالبر الغربي. !

وتتوالى الحملة المسعورة، ويتم استعداد اليونسكو على مصر، وآثار
مصر، وعلى سيادة مصر. !!

وتصل رسالة إلى رئيس هيئة الآثار المصرية د. زاهي حواس من
اليونسكو مفادها بأن ما يحدث في الأقصر يضر بالآثار المصرية التي
هي ضمن التراث العالمي الإنساني. ! .. ولأن زاهي حواس مصري
ينتمي فكرا وقلبا وعقلا إلى مصر.. فقد كان رده قاسيا «بنينا حضارتنا

منذ سبعة آلاف عام، ونعرف جيداً كيف نصونها، ونعتز بها،
ونحافظ عليها !

تتواصل الحملة وتشتعل حول بيت الأثرى الفرنسى جورج لوجران،
وقد تم تشييده على ضفاف معبد الكرنك عام ١٩١٦.. وكان لوجران -
الذى توفى عام ١٩١٧ بالأقصر - ونقل جثمانه إلى القاهرة ليدفن فيها
- قد عمل مفتشاً للآثار المصرية مع بداية القرن العشرين، وقد اعتبر
الفرنسيون المحدثون هذا البيت «أثراً».. ويذكر هنا الجهود الكبيرة
التي بذلها لوجران فى عمليات استكشافية كان لها نتائجها الهامة فى
البحث عن الآثار المصرية، وسجل اسمه فى تاريخ الإنسانية، وهذا أمر
لا ينكره الأثريون المصريون.

فضلاً عن أن البيوت التي يسكنها الفرنسيون والتي شيدت فى
العام ١٩٦٧، أقيمت «خطأ» على الميناء النهري الذي كان يربط معابد
الكرنك ونهر النيل، ومعه القناة الرئيسية للميناء، حيث كانت تبحر
الزوارق الثلاثة المقدسة للإله آمون وزوجته من الميناء إلى البر الغربى.
ويعلق رئيس قطاع الآثار المصرية صبرى عبد العزيز على «الضجة»
بقوله: «بيت مسيو لاجران ليس أثراً يجب الاحتفاظ به، سنزيل المنزل
لإحياء الميناء القديم الذى يقع تحته، والغرض فتح الرؤية أمام معابد
الكرنك».

بينما يرى مدير قطاع الآثار بالأقصر منصور بريك «أن الضجة
افتعلت للإبقاء على المنازل التي يقيم فيها الأثريون الفرنسيون، الذين

يرون فى هدمها ضعف منهم.. هى حالة عناد لا أكثر أو أقل ، هذا بالرغم من أن دومنيك فالابيل مدير المركز الفرنسى بالقاهرة قد وقع على وثيقة عام ١٩٦٧ بهدم منزل لوجران !

(٣)

وفى إطار الحملة المفرضة ضد مصر فى الميديا الفرنسية والتى دفعت اليونسكو إلى اتهام مصر بتشويه الآثار ، زعموا أن مواطنين من الأقصر بعثوا لهم برسائل استغاثة لإنقاذ آثار الأقصر من محاولات تشويهها تحت لافتة «التطوير» .. ومن هذه المزاعم أن نقل مواطنى البر الغربى فى منطقة القرنة من بيوتهم إلى بيوت أخرى ، هى عملية «تهجير» جديدة. !

وعبرت النيل إلى البر الغربى وشاهدت البيوت القديمة.. والجديدة وقمت بزيارة لمنزل قديم يملكه الحاج محمد أبو طايح ، ويبلغ من العمر ٩٣ سنة.. لكنه قادر على الحركة ، صاحب ذهن مرتب وصاف ، وهو يقود حركة المعارضة لنقل البيوت من فوق الجبانات إلى القرية الجديدة فى نجع الطارف فى حين أن حفيده الذى يلقب «بأحمد العمدة» له رأى آخر.

الجد محمد أبو طايح حالة فرعونية خالصة. أقرب إلى غصن البان القوى برغم السنين.

يحكى عن علاقته بكارتر مكتشف مقبرة توت عنخ آمون ، وحسن بك فتحى العمارى المصرى العظيم ، صاحب نظرية عمارة الفقراء.

يقول الجد محمد : إن منزله المبنى من الطوب اللبن، عمره الآن ١٢٠ سنة، ورثه عن أبيه، ويعيش فيه أولاده وأحفاده، وهو على مساحة كبيرة، ومثبت في خارطة الآثار، وأيام الملك فاروق صدرت قرارات إزالة لكل بيوت البر الغربى، ما عدا هذا البيت، الذى يقع فى نجع «الحروب» وهو واحد من نجوع القرنة.

ويؤكد، أنه بوصفه «دلال النجع» .. والدلال هنا «بمعنى الحكيم الراشد» .. وليس السمسار، هو الذى يحكم فى المنازعات بين الناس فى النجع.

لكن يا جدى الحاج - هكذا ناديته - تحت بيتك سرداب، وأكد بالسرداب آثار، لذلك، أنت وغيرك لا ترغبون فى ترك بيوتكم وهى بلا مياه أو كهرباء!

ينتفض الجد من جلسته، قائلاً فى هياج، السرداب ننام فيه شتاء بلا أغطية، وصيفا بلا مراوح!

وأخذنى من يدى، وراح يعدو كشاب فى العشرين من العمر، يعرف طريقه فى الظلام، واستخدمنا - نحن - البطاريات، ونور أجهزة الموبايل لنعرف طريقنا الذى يعرفه هو جيداً.

توقف وهو يقول: «فيه إيه فى السرداب، قش، أرز، تموين، فى الآثار؟» ويضيف : «الشيخ أحمد الطيب وأخوه محمد أخذوا قطعة واسعة، بنوا فيها قصور، ومع ذلك لم يتركوا بيوتهم.. ليه؟» .

نعود.. لنشرب الشاي، يحكى الجد عن أيام زمان، الذى كان العامل يتقاضى فيها أجرا من مستر كارتير، وينطقه «كات» .. مائة فضة! .. أما أيام حسن بك «يقصد المعمارى حسن فتحى» فكان رجلا كريما، يدفع للعامل - ومنهم أنا - ثلاثة قروش يومية.

يضيف: «الناس أيام زمان كانت تعبانة ماليا، لكن الدنيا كانت زينة» .. أما هذه الأيام «الدنيا هاصت ولا واحد طايق التانى» .. فضلا عن «التليفزيون خسر الناس، والبطالة زادت بين العيال والرجالة والنسوان» !.

وحملنى الجد محمد أبو طايح رسالة إلى «حاكم المدينة».. يقصد د. سمير فرج.. بأنه لن يترك بيته إلا إذا حصل على مساحة أرض كبيرة تساوى مساحة بيته الحالى!.

وينقل لى حفيده «أحمد العمدة» رأيا آخر، مخالف لرأى جده، ويقول: «نحن سوف ننتقل إلى البيت الجديد فى نجع الطارف لأنه مسكن صحى تتوفر فيه المياه النقية والكهرباء والصرف الصحى، ولا بد من ترك هذه المنطقة الأثرية.. على الأقل سنتخلص من تهمة سرقة وتهريب الآثار» !.

وأما فى هذه القضية تحديدا، فقد شاهدت على الطبيعة المنازل الجديدة، وهى لا تبعد كثيرا عن نجوع القرنة، وهى تكون فى مجملها قرية جديدة، حيث تقع مساحة البيت الواحد فى ١٧٥ مترا، منها ٧٥ مترا مبانى، ومائة متر كحوش مسور.. فضلا عن أن القرية

الجديدة - كما يقول د. سمير فرج - تضم مدرستين وقسم شرطة ومركز شباب وسوقاً تجارياً، وقد روعى استخدام عوامل الطبيعة فى البناء، بحيث تشكل القرية جزءاً من المنظور العام للمنطقة الجبلية.

(٤)

وقبل أن يطوى التطوير صفحة البيوت المقامة منذ مئات السنين على مقابر البر الغربى، تتدخل «يد التوثيق» لفنان تشكلى شاب «عمار أبو بكر الصديق» والذي يعمل معيدا بكلية الفنون الجميلة بالأقصر، راح يسجل بريشته هذه البيوت الطينية، يستنطقها، يخاطبها، وتخاطبه، يحولها إلى لوحات من «لحم ودم».. وشاع بين أطفال النجوع أنه منحاز للبيوت الطينية، بعد أن كان الأطفال من أبناء الميسورين يتباهون ببيوتهم المبنية من الطوب الأحمر والمسلح، ولم يكتف عمار «٢٧ سنة» بذلك، بل وعلى حد قوله : «قمنا بإنشاء جمعية بقرية المحروسة لرعاية التراث، تضم فى عضويتها من يعملون بالأدب والإعلام والمسرح والعرائس.. وبالطبع الفن التشكلى» .

يضيف: «وتنحصر مهمة هذه الجمعية فى رعاية التراث القديم، ومحاولة حمايته ورصده من خلال الطراز المعمارى القديم والعناصر البيئية التى تعكس تأثير الفن بالمقيمين فى هذه القرى، وقد تم عقد ورش عمل للأطفال لتربية جيل جديد يستطيع الحفاظ على هذا التراث البيئى الخالص الذى يعكس طبيعة ثقافية خاصة، والمهدد بالانقراض،

وأنتجت هذه الورش العديد من الأعمال الفنية شديدة التلقائية،
والمعبرة بشكل صادق عن الزمان والبيئة، وأخذنا هذه التصميمات،
وأعدنا تنفيذها عن طريق الحرفيين التلقائيين.

(٥)

تصل بعثة اليونسكو إلى الأقصر، متزامنة مع زيارتي، وتضم رون
فان أورس «هولندي الجنسية» ويعمل رئيسا لقسم البرامج المتخصصة
وعضوا في لجنة الحفاظ على التراث العالمي، والدكتور كريستوفر يانج
«إنجليزى» وهو أثرى متخصص فى إدارة المواقع الأثرية.

وقاما بجولة فى مدينة الأقصر، ومناطقها الأثرية برفقة
د. سمير فرج، كما قاما بزيارة البر الغربى، وقد تابعت البعثة
عن قرب، ولاحظت دقة فحصهما لكل صغيرة وكبيرة، وتصويرهما
لكل شىء، وكتابة ملاحظتهما، وكأنهما «قاضيان».

وكان على مواجهة البعثة، بإحساس مصرى، قبل واجبى المهنى
كصحفى، ولا أنكر أنها كانت مهمة صعبة فى الحصول على تقريرهما
قبل أن يرفعا إلى رئاستهما فى باريس.. لكنهما أكدا لى بداية:

«أن من حق السلطات المصرية إدارة مشروعاتها لتطوير المناطق
الأثرية، وأن زيارتهما لم تكن بقصد التدخل، بل للمتابعة، والوصول
إلى إجابات لتساؤلات وردت فى خطابات من مواطنين مصريين يعيشون
فى الأقصر، زعمت تعرض الآثار المصرية للخطر» !

ونفى رون ما تردد من أن اليونسكو قد أرسلت خطابا شديد اللهجة إلى د. زاهى حواس، بل كانت رسالة تحمل أسئلة، وقد جلسنا معا.. فى جلسة ودية، وكانت نتائجها إيجابية.

فى حين قال د. كريستوفر: إن الحكومة المصرية تعهدت بقبول المسئولية فى الحفاظ على تراثها الإنسانى، فضلا عن حقها فى وضع خطط تطويرية لمناطقها الأثرية، بالتشاور مع مركز التراث العالمى، التى تحتل فيه الآثار المصرية موقعا متميزا.

وأكد أنه من حق الحكومة المصرية إزالة العشوائيات، بل ومنزل الأثرى الفرنسى جورج لوجران، لأنه أقيم منذ البداية فى المكان الخطأ، كذلك ما يسمى بالقرية الفرنسية.

وإن كان رون قد تمنى لو تم تفكيك منزل لوجران ونقله إلى مكان آخر.. تعبيرا عن الاعتراف بجهوده الاستكشافية التى تمت فى بداية القرن الماضى.

وعن نقل مواطنى البر الغربى، قال رون: إنه برغم وجود هذه المنازل على موقع أثرى هام.. إلا إنه يتفهم حنين المواطنين إلى منازلهم الذين عاشوا فيها عشرات السنين، ويتمنى على الحكومة المصرية أن تقيم مع المواطنين حوارا قبل نقلهم إلى موطنهم الجديد فى نجع الطارف.

ويعلق رئيس قطاع الآثار المصرية صبرى عبد العزيز على اعترافات بعثة اليونسكو بقوله: «إنه من الإجحاف إنكار جهد الفرنسيين فى

عمليات الاستكشاف، وإن التخطيط يشمل إقامة متحف كبير، سيتم في جزء منه الاحتفاء بكل الذين ساهموا في عمليات الاستكشاف ومنهم لوجران وشيفرلييه وأوجست ماريت» .

يضيف: «لقد جاءت البعثة بفكرة خاطئة عن التطوير، لكنها تعود بانطباع إيجابى بعد أن شاهدوا كل شىء، وكنا واضحين معهم، لا سيما وإن التطوير لا يهدد التراث الإنسانى، بل هو لأجل الحفاظ عليه، بل وإن السلطات المصرية دعت خبراء اليونسكو للمساهمة في تطوير المناطق الأثرية» .

(٦)

ولأننا فى مدينة الحياة والخلود، الشروق والغروب، وكل ذات فلسفة خاصة ورؤية، ساقتنى قدامى بعد يوم حافل فى شمس الأقصر الملتهبة إلى حافة النيل، حيث الشمس فى طريقها إلى الرحيل.

هى راحلة إلى الغرب حيث مدافن الملوك والملكات والأشراف، بل وإن مدينة العمال التى تبلغ عدد مقابرهم عشرين ألفا وهم الذين شيدوا هذا التراث الإنسانى المبهر.

وفى اللحظة.

لحظة انحسار الشمس فى رحلتها اليومية.

يشعر الإنسان برعشة غريبة.. هى رهبة ممزوجة بالسكينة مع جلال الليل.

وفى لحظة سقوط الشمس على الجبل فى البر الغربى ، يبدو الجبل وكأن
يد فنان قد حولته إلى جداريات.. لكن الحقيقة أن من رسم ونقش ونحت
هى الشمس بدرجاتها المتباينة ذات اللون الأحمر فى ساعة الأصيل.
إنها لحظة اكتسى فيها النهر والجبل بآخر ضوء، فتعطى الرهبة
والسكينة فى آن.. وتدفع الإنسان إلى التأمل العميق، وتصل به
إلى إثارة السؤال المفتقد.. لقد عرف الأجداد ما لم نعرف.. لقد توصلوا
إلى الحقيقة!

ويصل إلى أذننى فى هذه اللحظة المقدسة وميض صوت الشاعر:
من الوميض، والرعود، والزلازل
يدق جرسٌ

يدق فى السماء
وراقد يغوص فى النقوش
يحرك العيون والأنامل

...

تدب فى العروق رحلة الدماء
يسير برهة

وينفض الغبار عن يديه
ويستحم فى بحيرة البقاء.. !

(٧)

أستفيق من لحظة تأمل ما بعد الحياة، لأعود مرة أخرى للحياة..

لأن فيها ما يستحق الحياة، أعود إلى نهار يسطع على الأقصر التي تحولت إلى «ورث عمل» في كل الاتجاهات، في منطقة الآثار، وفي أنحاء المدينة التي تحولت ألوان مبانيها إلى لون «ثمرة الدوم» .. وتم اختيار هذا اللون حتى لا يطفئ على ألوان الآثار والمعابد.

ومع د. سمير فرج أجد تساؤلا وقد طرح نفسه دون ترتيب: هل الأمانى ممكنة؟!

يقرر في إجابة سريعة وقاطعة.. نعم الأمانى ممكنة! لقد فتحت على نفسك النار من كل الاتجاهات، من أصحاب المصلحة في عدم التطوير، من أصحاب البازارات، وربما من رجال الدين، مسلمين ومسيحيين، من مهربي الآثار، ومن اليونسكو؟! ما الحكاية

هل تظن أنك مازلت مقاتلا في القوات المسلحة، أنت هنا على أرض عمرها آلاف السنين بكل تفاصيلها وموروثاتها، يضاف إليها عيوب هذا الزمان.!

ما الحكاية يا دكتور؟

يقرر د. سمير فرج رئيس المجلس الأعلى لمدينة الأقصر، ويكرر إن الأمانى ممكنة، والأحلام يبدأ تنفيذها بالخطوة الأولى، وكلها تصب في إعادة الوجه التاريخي المشرق والحضارى الرائع لمدينة الخلود، الأقصر، والوصول إلى ما كانت عليه قبل خمسة آلاف عام! .. وأن تتحول إلى «متحف مفتوح» يليق بشعب مصر وحضارته.

يستمر في الحكاية.. الحكاية - ياسيدى - واضحة، خطة أعدّها البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة لتطوير مدينة الأقصر، وقد ظلت حبيسة الأدراج سبع سنوات، نفضنا عنها القراب بعد زيارة رئيس الوزراء أحمد نظيف للأقصر وبرفقته ١٢ وزيرا فى أول يناير ٢٠٠٤. والخطة تصل بنودها إلى ٢٨ بندا، كلها تبدأ بـ «سوف» كان علينا أن نضعها على أرض الواقع، ونبدأ، بروح المقاتل، بدافع الإنجاز، بالإرادة، بالدعم الحكومى، والذى لحقه - مؤخرا - الدعم الشعبى. بدأنا

□ معابد الكرنك تقع على مساحة ٢٥٠ فداناً، وهى أكبر آثار الدنيا، علينا أن نعيد الموقع لما كان عليه، التكلفة ٦١٠ ملايين جنيه وتبلغ تكاليف إعادة طريق الكباش نحو ٢٤٠ مليوناً تم تدبيرها من وزارة التعاون الدولى.

□ نستهدف رفع عدد السياح من ٣,٥ ملايين إلى ٤ ملايين فى العام.
□ نتجه نحو الظهير الصحراوى، باستثمارات صناعية فى ٢٥ ألف فدان، فضلا عن الاستثمارات الزراعية فى ٤٠ ألف فدان، والبداية ١٠٠٠ فدان لمستثمر سعودى.

□ مرسى نهري سياحى فى منطقة الطود، سيكون أجمل من خليج نعمة بشرم الشيخ.

□ أقمنا طريقاً دائرياً حول الكرنك بلغت تكاليفه ١٢ مليوناً.
□ نقوم بتطوير فكرة الأجداد الفراعنة فى سحب المياه الجوفية،

هم حفروا خندقا، نعيد حفرة مرة أخرى باستخدام التكنولوجيا،
ويتكلف ٥٠ مليوناً، ٤٠ مليوناً من المعونة الأمريكية و ١٠ ملايين من
وزارة الثقافة.

□ أقمنا مركز النوبة الحضارى، حيث يقيم ٢٥ ألف نوبى بالأقصر
منذ التهجير الأول عام ١٩٣٣، وندرب فيه الفتيات على الحرف
البيئية، مع تجهيز نموذج لقرية نوبية سياحية بالبر الغربى.
يضيف.. وكما ترى نعيد تخطيط ميدان محطة السكك الحديدية،
مع إعادة تطويرها وتجهيزها على أعلى مستوى لتتلاءم مع وجه
الأقصر، مع توسيع الشوارع وتشجيرها، وتغطية أسقف الأسواق،
بأسقف ذات شكل جمالى تتناسب والروح التاريخية والأثرية للمدينة.
وأؤكد لك - والتأكيد لسمير فرج - أن الأمانى .. ممكنة. ! بل كل
الأمانى ممكنة.

(٨)

وإذا كان د. سمير فرج يرى «أن الأمانى ممكنة».. فالأقصر تعج
بمبدعيها، وعاشقيها، ومجازيبيها، ودرأويشها، الذين يكتبون القصة
والشعر، ويبعدون مسرحاً راقياً، وفناً تشكيميا يوثقون به اللحظة،
لعلهم يلحقون بأجدادهم.

منهم درويش كبير، اسمه «حسين خليفة» كان أول من نبه إلى الاهتمام
بالتراث الشعبى المتناثر فى حكايات الجدود والجذات، وفنون القول
القلقائى. وحسين، وهو قاض كبير، كان المحرك الأساسى لحركة الأدب

فى الأقصر منذ سبعينات القرن الماضى؁ بدأ شاعرا متوهجا؁ عرفته القاهرة؁ وكتب عنه فؤاد حداد؁ ودعاه صلاح جاهين للإقامة فى القاهرة؁ لكنه لفظها؁ أو قل لفظته؁ فعاد للأقصر؁ ينشر؁ ويكتب؁ ويعلم.

والدهش.. أن إنتاجه على مدار ثلاثة عقود؁ والذي كان يعده للنشر؁ قد احترقت أسطوانته فى الكمبيوتر! وضاع الآخر بين أدراج مكاتب الثقافة الجماهيرية؁ وبعضه ضاع فى بيوت الأصدقاء! .. لكنه يؤكد لى «سأعيد كتابته مرة أخرى بذات الروح التى كتبته بها من قبل» .!

ودوريش آخر اسمه «أشرف النوبى» مخرج مسرحى؁ يرقص وهو يمشى؁ ويمشى وهو يرقص؁ يحلم بأن تقوم الثقافة الجماهيرية بالأقصر بتدريب الممثلين والمواهب الجديدة؁ ويحلم بتقديم مسرحه فى الشارع؁ وفى ساحة أبى الحجاج؁ وفى ساحة معبد الكرنك. يريد فنا يلتحم بالأقصر؁ ويخرج من تراثها؁ ومثقفها؁ ومبدعيها؁ يقدم للناس بمختلف ثقافاتهم وجنسياتهم؁ يخاطبهم بالموسيقى وروح الشعر؁ لأنه يؤمن بأن المسرح لغة عالمية.

ويتمنى النوبى دعما لفكرته التى تقل تكاليفها عن تكاليف حفل عشاء «!!» وتقل جدا جدا عن تكاليف احتفالات أعياد «الأوبت» التى أقيمت فى الأقصر من عدة سنوات؁ وأخرجها مخرج قاهرى كبير؁ وتقاضى أجرا مدهشا؁ ومع ذلك.. لم يقدم تراث «الأوبت» .!

ودوريش آخر؁

شاعر وباحث؁

أحمد فؤاد جويلي يرى إمكانية تحقيق حلم أشرف النوبى، لأن الأقصر تضم مواهب كبيرة من المخرجين وكتاب القصة والشعر والمسرح، ولديهم اهتمام حقيقى بتراث مصر الفرعونى المتمثل فى الحضارة الشاهدة على الأقصر، المشروع يمكن أن يكون أقصريا وديكوره المعبد الأثرى يضيف ويحفظ الأقصر «تراثها وسحابها وناسها» كنزا كبيرا من المعتقدات الشعبية والأساطير، والتراث الشعبى بشقيه الشفاهى والمادى، وإذا كانت كل قرى مصر تحتزن هذا الكنز، إلا أن الأقصر - بوجه خاص - لها ما ليس لغيرها من مدن وقرى مصر.

يتذكر جويلي ويوضح .. «وأنت عندما تستيقظ فى الصباح، وتتوجه إلى مدرستك، ويكون أول ما يواجهك بوابات الكرنك العظيم، أو معبد الأقصر، قل لى ما الذى يدور فى مخيلتك، ما الذى تحتزنه الذاكرة، كيف تتفاعل صور العمالقة والتماثيل والمعابد، مع سجادك طفلا فى بيت من بيوت الله» ؟!

ويشرح.. لقد وضعت «خطة أطلس فلكلورى أقصرى» وبدأت فعليا فى اختيار مقر بالبر الغربى، وتأسيس «جماعة حفظ وتوثيق التراث الأقصرى» وقد عرضت الفكرة على د. سمير فرج، فرحب بها، ووعد بتدعيمها. يضيف.. سنعمل على توثيق المادة التراثية التى سنجمعها، وسوف نجرى دراسات تحليلية لكل قسم من هذه المواد، لإصدارها فى مجموعة كتب تحفظ تراث الأجداد.

وتستمر سلسلة الدراويش فى حب الأقصر.

و الفنان التشكيلي «عمار أبو بكر الصديق» قدم من المنيا لدراسة
الفنون التشكيلية بكلية فنون الأقصر، فسكنته الأقصر، فأقام بها بعد
انتهاء دراسته، وتعيينه معيدا بالكلية، أسأله عن أوجه الشبه بين
الطقوس الفرعونية، وملامح الحياة في مصر القديمة، وما يحدث الآن
في الحياة المعاصرة.

يقول.. ما يحدث في موالد العارفين بالله، هو كثير الشبه مع ما كان
يحدث قديما، مثلا: الشكل المصمم عليه مقام العارف بالله بمدينة
سوهاج يمثل تطورا طبيعيا لشكل أبو الهول، وما يقدم من نفحات
ونذور لمقامات الشيوخ الآن، تشابه تلك التي كان يتم تقديمها في
العصور الفرعونية، والشموع والمخبوزات البسيطة تشبه ما يتم تقديمه
عند الأقباط وهو «القربان» .

ويشير عمار إلى أن فكرة «تغيير توب العارف بالله» سنويا، وغسيل
المقام بماء الورد، هو تقليد فرعونى، حيث غسيل قدس الأقداس سنويا
بماء الورد .

ويرصد عمار حركة الفنان التلقائي، وهو يرسم جداريات الحج على
البيوت الطينية، وهى تعكس الطبيعة المتأصلة في الشخصية المصرية،
وتحايله على كل ما هو محرم فى رسم الشخص والرموز بتصميمات
مشابهة لتصرف الفنان المصرى القديم .

ويسرى أن أعمال الفنان المصرى القديم، سواء كانت عمارة أم رسماً
أم نحتاً، هى حالة من حالات التدين الشديد.

وبعد أن فرضت الشمس سطوتها على الأرض، انزوت، رحلت عبر
النيل إلى الجبل في البر الغربي، وعادت في صباح اليوم التالي مشرقة
على الأقصر، التاريخ، البدايات، وأنشد مع الشاعر :

وصلت سالـمـا

كما يقال في الحكايات القديمة

تعلقت أصابعي بصخرة الشاطئ

سقطت -مرهقا على الرمال - برهة قصيرة

أفقت، قبل أن تغوص في المياه نجمة الحكاية !

حقـا... أفـقـت

واقـرأ التـقـاريـخ

على صفـحات الأقـصر

فقد بلغت من القدم والعراقة و الأصالة، مبلغا كبيرا، وهى من
مدن قليلة فى العالم ممن شهد مولد التاريخ، والحضارة الإنسانية،
منذ آلاف السنين، فضلا عن كونها تمتلك ثلث آثار العالم، وكانت
الأقصر، ولم تزل جزءا عزيزا من وادى النيل.

وكان الوادى قديما مليئا بالمستنقعات والأحراش، ينمو بها نبات
البردى واللوتس وأشجار النخيل والدوم والجميز و السنط والنبق
والصفصاف والغاب، وكانت تعيش بها أفراس النهر و التماسيح
والزراف والفيلة و الذئاب و الضباع، كما كانت تكثر فيها الحيات

و الأفاعى و الثعابين، علاوة على أنواع كثيرة من الطيور المحلقة فوق الوادى .

كان هذا حال الوادى قبل اكتشاف الحضارة .

ويشير الباحثون إلى تعدد السلالات و الأجناس البشرية التى عاشت فى جنوب الوادى وشماله، فقد ضمت أجناسا حامية وسامية، بل وبحر متوسطية، ويمكن القول بأنها انصهرت معا ولا أحد يستطيع أن يدعى أن جنسا ما قد عاش فى منطقة ما منعزلا بمفرده.

ويشير الباحث الأقصرى عبد المعطى الكلاسى بأن صعيد مصر - والأقصر جزء أصيل منه - قد ساد فيه «الجنس الحامى» القادم من الجنوب ويدل على ذلك التماثل فى الإنتاج الحضارى فى مصر والنوبة السفلى.

وغالبية سكان الأقصر من فروع تنتمى إلى أصول سامية، تتفرع من أصل واحد، ترد نسبته إلى سام بن نوح عليه السلام، فيما تنتمى بعض القبائل إلى سلالات مصرية قديمة، وبعضها يرجع إلى سلالات عربية وفدت إليها من شبه الجزيرة العربية، خاصة أيام الفتح الإسلامى، واستمر تدفقها إلى مصر طوال القرون الماضية ومن أهم القبائل التى وصلت مصر «جهينة» و «بيلى» وقد اتجهت الأولى إلى صعيد مصر وشمال السودان، ويطلق عليهم الآن «عرب جهينة»

ومن أشهر القبائل التى سكنت الأقصر، خاصة الكرنك و المنشاة والعوامية، قبائل «الفهدية» الذى يرجع نسبهم إلى فهد بن جبل

القرشى الهاشمى، الذى يمتد نسبه إلى العباس بن عبد المطلب، كذلك ذرية الصحابى الجليل عبادة بن الصامت، والصحابى محمد بن أبى بكر الصديق، ويسكنون قرية «الجبيل».

كما سكنت القصر وقراها ونجوعها قبائل عديدة وفدت من مكة واليمن والعراق و تركيا والأندلس، إضافة إلى الأقباط الذين عاشوا بها .. كما يوجد ذريات و سلالات يرجع نسبها إلى الفراعنة و اليونان والرومان، و الذين امتزجت دماؤهم بغيرهم فى الأقصر.

ومن أشهر الشخصيات التى سكنت الأقصر العارف بالله أبو حجاج الأقصرى، القادم من العراق، وفقا لما ذكره الأدقوى فى كتابه «الطالع السعيد» .

والناس فى الأقصر – خاصة المقيمين فى القرى و النجوع – مازال غالبيتهم يتمسكون بالنظام القبلى، بل ويعيشون فى ظله.

وهو نظام، يحترم كبار السن من نوى النسب، وأصحاب العقول الراجحة، والأخلاق الحسنة، والسمعة الطيبة، ويؤخذ برأيهم ومشورتهم فى حل المشكلات، والصلح بين المتخاصمين، ورد الحقوق لأصحابها، ولا يعقد أو يبرم أمرا إلا بعد الرجوع إليهم و الأخذ برأيهم، ومشورتهم، فهم أهل «الحل والعقد» فى المجتمع المترابط ويتميز الناس فى ظل هذا النظام بالولاء و الانتماء لعائلاتهم، ويلاحظ وقوفهم بجانب بعضهم وقت الشدة و الأفراح والمناسبات و الترشيح للمجالس النيابية .

وقد تعددت أسماء الأقصر من عصر إلى عصر . وقد وصف هيرودوت مدينة طيبة بأنها المدينة ذات «المائة باب» إذ كانت محصنة بأسوار عالية، وموزعة على أماكن متفرقة، ويدل على ذلك ما جاء في نصوص الملك «أمنوفيس الثانى» الذى يقص علينا «أنه عند عودته ظافرا من حملته فى آسيا، علق ستة رجال مهزومين فوق أسوار طيبة» .

وقد أطلق العرب المسلمون على هذه المدينة بعد فتح مصر، اسم «الأقصر جمع قصر» .. فى إشارة منهم إلى معابد تلك المدينة الشامخة ووصفها المؤرخ ياقوت الحموى بقوله «الأقصر اسم مدينة على شاطئ شرقى من النيل بالصعيد الأعلى، وهى أزلية قديمة ذات قصور» .. فى الوقت الذى قال فيه ابن بطوطة «وهى صغيرة حسنة، وبها قبر الصالح العابد أبو الحجاج الأقصرى» ..

وورد فى معجم البلدان «الأقصر كأنه جمع قصر، وهو اسم مدينة على الشاطئ الشرقى للنيل بالصعيد الأعلى» .. وجاء فى الخطط التوفيقية «ومن أسمائها طيبة، وطيوه، واسمها على لسان العامة لقصر» .. وجاء عنها فى قوانين ابن ممتى «الأقصرين وهما بالبر الشرقى من النيل يقصد الأقصر والكرنك- وبها عنب غاية فى الكبر والحسن، وبها مدرسة لطلب العلم، ويعمل فى هاتين البلدين من الفخار الأبيض النقى الرقيق الذى ليس يعمل بديار مصر .. مثله» .

ويذكر الباحث عبد المعطى الكلاسى أن مدينة الأقصر كانت قديما «أبت الثنائية» .. و ذلك فى إشارة إلى قسمى المدينة اللذين يمثلهما معبدا الأقصر والكرنك، وقد أطلق على معبد الأقصر اسم «أبت رسيث» بمعنى «أبت الجنوبية» .. كما أطلق على معبد الكرنك اسم «أبت إيوت» بمعنى «عروش أبت» . ومن الجائز، كما يقول الباحثون أن «أبت» كانت تنطق فى عصر الدولة الحديثة «آبى» وهى كلمة إذا سبقتها أداة التعريف للمؤنث «تا» تصبح «تابى» وقد حرفت الكلمة إلى «طيبة» .

وقد جاء فى النشيد التاسع من الإلياذة «هناك فى طيبة المصرية حيث تلمع أكوام سبائك الذهب، طيبة ذات المائة باب، حيث يمر فى مشية عسكرية أربعمئة من الرجال الأبطال بخيلهم، وعرباتهم من كل باب من أبوابها الضخمة» .

ويفسر الكلاسى كلمة طيبة بأنها مشتقة من الكلمة المصرية القديمة «تا - أبت» .. أى «الحرم» أو «المكان المقدس» .. فضلا عما ذكره ويجل بقوله «إن طيبة مركبة من مقطعين هما «تا» ومعناها «أل» تضاف إلى الاسم المؤنث و «ابى» ومعناها مدخل أو باب، ومن هنا فإن طيبة تعنى الباب، وكانت تطلق على القسم الغربى المعروف الآن ببيان الملوك أو طيبة الأموات»

وقد أطلق المصريون فى عهد الدولة القديمة على الأقصر اسم «المدينة الجنوبية» .. وهى عاصمتها والتى أسسها الملك مينا الذى

ظهر فى طيبة، ويأتى ذلك بعد نجاحه فى تحقيق الوحدة الشاملة بين مملكتى الشمال والجنوب، وقد اختار مينا هذا المكان تحديدا ليسهل له السيطرة الكاملة على شطرى البلاد .

وفى عصر الدولة الوسطى نسبت طيبة إلى معبودها «آمون» والتي صارت له القبلة، فسميت المدينة «توت آمون» بمعنى «مدينة آمون».. وفى الدولة الحديثة، صارت الأقصر عاصمة سياسية ودينية، وأطلق عليها اسم «المدينة المنتصرة» .. كما أطلقوا اسم «واست» بمعنى «الصولجان» رمز الحكم والسلطان، وفى العصر اليونانى و الرومانى، أطلق عليها اسم «ديوسبوليس مجالا» أى «المدينة الكبرى لزيوس».. حيث شبه اليونانيون الإله آمون بالإله اليونانى الشهير زيوس.

وقد أطلق المصريون القدماء على البر الشرقى للنيل «مدينة الأحياء» حيث المعابد الدينية التى تؤدى داخلها طقوس العبادة والتقرب إلى الآلهة كما يوجد بها قصور الملوك و الأمراء و النبلاء و الأشراف، وبيوت الكهنة والموظفون وعامة الشعب، وأطلقوا على البر الغربى «مدينة الأموات» حيث المعابد الجنائزية، وفيها يقوم الملك بخدمة الآلهة بعد موته، كما كان يطلق على مدينة الأموات اسم «برحا تحور» أى «بيت حاتحور» الإله المقدسة فى هذا الوادى الموحش، و الذى يوكل إليها مسئولية حماية هذه المدينة من عبث اللصوص حينذاك، لكن فى هذه الأيام .. من يحميها من عبث اللصوص المعاصرين.؟!

(١١)

قالت صغيرتى :

العبرة نأخذها من التاريخ ، وننفذ بها إلى الحاضر ، ربما نصل إلى
تصور للمستقبل.

ويرد عليها فاروق جويده بشعره :

ببين الحجارة عاشق
عرف اليقين على ضفاف النيل يوما فاهتدى
وأحبه حتى تلاشى فيه
لم يعرف لهذا الحب عمرا.. أو مدى

(١٢)

وقد تعددت الآلهة في طيبة ، وتمثل في الثالوث المقدس «الإله آمون»
الذى كان يظهر في صورة آدمى ، أو في هيئة حيوان على صورة كبش.
«والآلهة موت» زوجة آمون ، متمثلة في صورة امرأة ، أو أنثى
العقاب ، أو أنثى الأسد ، و «الإله خنسو» إله القمر ، وهو ابن لكل من
آمون وموت ، ويظهر في صورة إنسان برأس صقر ، يحمل على رأسه
الهلال ، يعلوه قرص القمر كاملا ، وقد حظيت بمكانة دينية سامية.
وقد اعتاد مؤرخو التاريخ الفرعونى على تقسيم تاريخ مصر إلى أقسام
متتالية ، يحمل كل قسم مجموعة أسرات ، وصلت إلى ٣١ أسرة ، بدأت بالملك
مينا موحد القطرين ، ومؤسس الأسرة الفرعونية الأولى عام ٣٢٠٠ ق. م
وتنتهى بقدوم الإسكندر الأكبر ، ودخوله مصر عام ٣٣٢ ق. م .

وقد آمن المصريون بعقيدة التوحيد، وأن للكون إلها واحداً، هو المتصرف فى كل الأحوال، كما آمنوا بعقيدة البعث والحساب و الثواب والعقاب، لذلك فقد اعتنى المصريون بموتاهم، بما فى ذلك التحنيط.. سر الأسرار حتى الآن، كما اعتنى المصريون ببناء المقابر الملكية وغير الملكية و اهتموا بتزيينها، وتنافسوا فيها تنافساً كبيراً، وقاموا بنقش أعمالهم، وأساليب حياتهم على جدرانها، لتكون أنيساً لهم فى الممات، إلى يوم البعث والحساب .

(١٣)

وقد أسفرت هذه العقيدة عن إنتاج هذه الحضارة الهائلة، التى استخدمت العلم فى بدايات تاريخ الإنسانية، لتقدم فناً تشكيمياً ومعمارياً، وصفه أبناء هذا الزمان، بأنهم لم يصلوا بعد إلى قمة أجدادهم فى إنتاجهم الفنى الكبير.

وعلى رغم آلاف السنين، هى عمر هذه المعالم الحضارية والأثرية، فقد ظلت شامخة، وهى بذلك شاهدة على عبقرية الإنسان المصرى القديم.

والأقصر فى برها الشرقى هى «مدينة الأحياء» .. ومن أبرز المعالم:

معبد الأقصر:

هو من المعابد الدينية، والتى تقام فيه الطقوس الدينية، وتُقدَّم القرابين والابتهالات للآلهة، ويقع على مساحة أربعة أفدنة، على

مقربة من شاطئ النيل ، ويبلغ طوله ٨٥٣ قدما ، وعرضه ١٨١ قدما ، وهو يمثل شموخ مدينة طيبة عاصمة العالم القديم .

ويرجع بناء المعبد إلى فترتين ، الأولى في السنوات الأخيرة من الثامنة عشرة ، والثانية في النصف الأول من الأسرة التاسعة عشرة .

وقد أقيم على أنقاض معبد قديم يرجع بناؤه إلى عصر الدولة الوسطى ، وقد أقيم معبد الأقصر ليكون مقرا لثالوث طيبة المقدس ، والتقرب إلى الآلهة «أمون وموت وخنسو» .

وقد شارك في تشييده تحتمس الثالث الذى أقام بالمعبد مقاصير زوارق ثالوث طيبة المقدس ، فضلا عن رمسيس الثانى الذى أضاف للمعبد الفناء الخارجى المفتوح بأعمدته ، والصرح العظيم فى النهاية الشمالية للمعبد ، فضلا عن مسلتين شامختين .

ويروى المهندس «باك ان خنسو» الذى أشرف على البناء بعضا من ذكرياته «لقد أقمت هذه المسلات من الجرانيت ، وكان بهاؤها يصل إلى السماء وزرعت الأشجار فى الحدائق ، وصنعت أبوابا ضخمة ذات دلفتين من الالكتروم ، يلتقى جمالها مع جمال السماء» .

ويحتوى المعبد على تماثيل لرمسيس الثانى وتوت عنخ أمون ، كما يضم فناء به عدد كبير من الأعمدة على شكل زهرة اللوتس ، ويذكر أن الاسكندر الأكبر أراد أن يرضى الإله أمون فأقام له مقصورة فى أقصى جنوب المعبد داخل الهيكل ، ثم جاء المسيحيون فشيدوا كنيسة

لهم داخل قدس الأقداس، وفي العصر الفاطمي أقام المسلمون مسجدا للعارف بالله أبو الحجاج الأقصرى في الفناء الأول.
وتمثلت داخل معبد الأقصر - بذلك - حضارات فرعونية ويونانية ورومانية ومسيحية وإسلامية!

معابد الكرنك

والكرنك يعنى «القرية الحصينة» أو «الحصن» ويعد من أكبر دور العبادة في التاريخ، وبنى لعبادة الإله آمون، إله مدينة طيبة.
ويقع على مساحة ٦٣ فدانا، يربطهم معبد الأقصر «طريق الكباش» الذى أقامه أمنوفيس الثالث ١٤٠٥ - ١٣٦٨ ق.م .
ومعابد الكرنك، عبارة عن مجموعة فسيحة من المباني المقدسة، ويضم عددا من المعابد أبرزها معبد الإله خنسو، وأمون رع الكبير، ورمسيس الثالث، والآلهة موت، وبتاح وحتحور ومنتو.
وبدأ تشييد هذه المعابد فى أوائل الدولة القديمة، ثم الوسطى، وصولا إلى الدولة الحديثة، وحيث يقف الفرعون فى البهو، يرى عبر النيل معبد الدير البحرى.

(١٤)

وبعبور نهر النيل، إلى البر الغربى، وبالانتقال على وسط التلال والهضاب والصحارى، يشعر الإنسان وكأنه فى العالم الآخر، لقد اقشعر بدنى وأنا فى مدينة الأموات، فالقدسية فرضت نفسها،

وجلال الموت تملكنى ، وعبق التاريخ أخذنى ، إلى حيث يعيش الأجداد فى العالم الآخر.

وقد أطلق الفراعنة على البر الغربى اسم «مدينة الأموات» وقد اختاروا هذا المكان ليقم الدفن فيه ، وهو يعد النموذج المقابل من الجهة الجنوبية للجبانة العظيمة فى مدينة منف القديمة فى الشمال ، وهاتان المدينتان المقدستان «طيبة الغربية» جنوبا و «منف الغربية» شمالا تعتبران مكملتين لبعضهما ، ليس فى الموقع فقط ، ولكن فى التاريخ أيضا.

واختيار البر الغربى له فلسفة دينية ، هى أن جهة الغرب ، كانت مقدسة عند المصريين ، لاعتقادهم فى أن مغيب الشمس ما هو إلا طريق إلى العالم الآخر ، عالم إله الموتى «أوزوريس» ولا يمكن للمرء إلا أن يقف مندهشا لتلك المقابر الملكية المنحوتة داخل الصخر ، ووراء الهضاب فى الوادى الموحش ، وذلك لضمان راحتهم الأبدية ، وحماية مقابرهم من أعمال السطو بعد مماتهم .

ومن المعابد اللافتة للانتباه - وإن كان كل شىء لافتا للانتباه والدهشة - المعابد الجنائزية ، ومعبد القرنة ، والدير البحرى ، وتمثالا ممفون ، والملكة حتشبسوت ، وتحتمس الثالث ، ورمسيس الثانى ، ودير المدينة ، والمعابد الجنائزية بمدينة هابو ، ومقابر وادى الملوك والملكات ، ومقبرة توت عنخ أمون ، وباقى ملوك الأسر الفرعونية ، فضلا عن مقابر الأشراف والتي تصل إلى ٤٠٠ مقبرة.

وفى عصرنا الحديث، وتحديدًا فى عام ١٩٧٥.. تم إنشاء معبد
الأقصر الذى يقع بين معبدى الأقصر والكرنك، على شاطئ النيل،
وقد أقيم بغرض عرض القطع الأثرية النفيسة.
وشيد المتحف على أحدث الطرز المعمارية، مستخدماً أحدث
الأساليب المتحفية فى العرض، ويضم - بين ما يضم - جناحاً خاصاً
لعرض آثار فرعونية «خبيثة».. هى غاية فى الجمال و الروعة.
ومتحف الأقصر، يعطيك الإحساس بالزهو تجاه حضارة عاشت آلاف
السنين - وتؤكد قدرة الإنسان المصرى المعاصر على الحفاظ على تاريخه. !

(١٥)

تطل الشمس على مدينة الأحياء، ويظل القلم عاجزاً عن التعبير
عن عظمة الزمان والأثر، ويظل الإحساس معلقاً بالأقصر، هذه أرض
أجدادى، وهذا مجد على أحفادنا الحفاظ عليه.
ويبقى أن أشدومع عاشق الأقصر الشاعر أحمد جويلى فى نهاية
الرحلة :

تفلتت المجرة الكواكب
ومن عروقها الجبال
تكشف كهوفها عن الرسوم
فكرة وموسميساء
ونازحين - فى الجدار - للبقاء
وعن شروحم لمبعث الضمير

والسقيامة
من التراب أقلع الشجر
وأقلعت حقول
أتى السمزارعون
مضى ربيع كدحهم إلى الأفول
وغاصت الجذور نحو باطن
الـثـرى.

أرض الفيروز و القمر وصندوق الذهب

ما إن

وَطِئْتُ السيارة رمال سيناء بعد عبوري نفق الشهيد أحمد حمدي الواصل بين السويس وسيناء تحت مياه قناة السويس، حتى أحسست برعشة ملأت نفسي وجسدي، تأملت الشمس، وراحت عيناي تلتهم الصحاري الممتدة، وذاكرتي تلح علي بالمكان والتاريخ، على هذه الأرض وطوال ستة آلاف عام سالت الدماء دفاعا و استبسالا هنا حارب أحمر الحِيثِيِّين باختراع عصره «العربة الحربية» .. وهذا الطريق هو أول طريق حربي عرفه العالم و الذي سمي «حورس» فرعه الشمالي بسيناء الشمالية، والجنوبي يمر بالنقب حتى جزيرة فرعون، والذي عرف فيما بعد بطريق الحج.. ومن هذا الممر قطع عمرو بن العاص الرحلة من الجزيرة العربية ليعز الإسلام بمصر، وتعز مصر بالإسلام، ويجوب صلاح الدين صحراء سيناء مدافعا صلدا عن العروبة والإسلام، حيث قاعدته بوابة جنوب سيناء، من خلال قلعته بجزيرة فرعون جنوبي طابا بثمانية كيلو مترات .

وبعد سنوات الاحتلال، أعاد المصريون ما ضاع منهم، محققين مقولة «مصر تعرف أن الشمس فوق سيناء يطلعها البشر» !
لقد حقق الإنسان المصري المقولة، وأعاد شمس سيناء إلى الوطن.

نبدأ الرحلة فى التاريخ والجغرافيا : لقد أطلقت تسميات كثيرة على جنوب سيناء، أرض القمر، أرض الفيروز، أرض الأديان، فى الوقت الذى أطلق عليها فى العصور الفرعونية اسم «توشويت» أى الأرض الجرداء، وفى عهد الدولة الأشورية «أرض مجان» الذى صرف إلى اسم «مدين» الذى عرفت به سيناء فى العصر العباسى، أما كلمة سيناء فقد اقتبست من لفظ «سين» ومعناه «القمر» .. !

وجنوب سيناء .. هو الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة التى تعتبر أول منطقة شهدت صناعة التعدين فى التاريخ، فمنذ أكثر من ستة آلاف عام، تم صهر النحاس، واستخراج الفيروز والذهب من وادى النصب و وادى المغارة، ومنذ أكثر من خمسة آلاف عام، وضعت أول أبجدية عرفها العالم، حيث شهدت مغارات الفيروز ما سجله الفراعنة منذ زوسر وحتى سنوسرت من نقوش هيروغليفية وسينية .

وشهدت هذه المنطقة طوال التاريخ، صراعا محموما، وكانت البوابة من العرب إلى العرب عبر سيناء، لذلك كان من الطبيعى أن تتحصن لحماية الحدود الشرقية لمصر، حيث توجد قلعة طور سيناء التى بناها السلطان سليم الأول عام ١٥٣٠ و التى تبعد عن مدينة الطور بنحو خمسة كيلومترات، ثم قلعة الجندي التى بنيت فى عصر صلاح الدين الأيوبي عام ١١٧٠ على بعد ستة كيلومترات شرق مدينة رأس سدر، أما قلعة صلاح الدين التى بدأ فى تشييدها عام ١١٧٠ فوق جزيرة

فرعون بعد انتصاره على الصليبيين، فتبرز أهميتها في قيامها بدور حيوى فى حماية خليج العقبة و البحر الأحمر و الجزيرة العربية من الوقوع فى أيدي الصليبيين .

كذلك موقعها المنيع ضد «أرناط» الصليبي أمير حصن الكرنك الذى قام بتجهيز حملة للاستيلاء على الجزيرة للانطلاق منها إلى المدينة المنورة عام ١١٨٢، إلا إنه لم يتمكن من ذلك، وظلت صامدة أمام ضراوة الحصار المضروب عليها من السفن الصليبية ..

.. وقلعة صلاح الدين - وفقا لما ذكره د. أحمد قدرى - من الآثار الشامخة و الدالة على عمق الفكر العسكرى المصرى، علاوة على قيمتها الأثرية و التاريخية و الإسلامية، لأنها لعبت دور الحارس الأمين للشواطئ العربية فى مصر و الجزيرة العربية و فلسطين على حد سواء. ويوجد فى هذه المنطقة معبد سرايت الخادم بمدينة أبو زنيمة، وقد بنى «للإله حتحور» حامى حدود مصر الشرقية منذ أربعة آلاف عام، ووادى المكتب وبه كتابات تاريخية على جوانب جباله باللغة القبطية و اليونانية والعربية، ثم وادى المغارة وبه صخرات عليها نقوش باللغة الهيروغليفية، وهو مكان لتعدين الفيروز، وبه تمثال كبير أقامه الملك «سمرخت» آخر ملوك الأسرة الفرعونية الأولى، أما أهم الصخرات التى عثر عليها فى هذا الوادى، فهى صخرة سمرخت التى تعتبر أكبر أثر للفراعنة فى سيناء، بل قيل إنها أقدم أثر من نوعه فى العالم .

وشبه جزيرة سيناء، جغرافيا تقع فى أقصى الغرب من قارة آسيا، وتربط قارتى آسيا و أفريقيا برا، وبعد حفر قناة السويس زادت الأهمية الاستراتيجية لسيناء باعتبارها حلقة اتصال العالم برا وبحرا، علاوة على الخيرات الكامنة فى جبالها ووديانها وسهولها وشواطئها، وتبلغ مساحتها بعد صدور القرار الجمهورى فى عام ١٩٧٩ بتقسيمها إلى محافظتين شمال وجنوب، حيث يفصلهما الخط الوهمى الواصل من طابا شرقا إلى رأس مسلة غربا، حوالى ٣٠ ألف كيلو متر.

وهى شبه جزيرة مثلثة الشكل تقع بين خليجى السويس والعقبة ويغلب على طبيعتها الجبال التى تتوسطها، ويصل ارتفاعها إلى ٢٦٣٩ مترا وتتخلل هذه الجبال مجموعة من الوديان تهبط إلى الشرق والشمال والغرب، وقد وهبها الله جمالا طبيعيا فذا، فتجد ألوانها زاهية خاصة الأحمر والأصفر والأخضر والأسود علاوة على أن أمطار السيول حفرت على الجبال رسوما يخيّل للمشاهد أن هناك فنانا عظيما نحتها، أو رسمها وخلق منها تشكيلات فنية مذهشة .

كما أن سلاسل الجبال تعلو وتنخفض وتعطى شكلها العام «بانوراما» بألوان متعددة وفقا لسقوط الشمس عليها، خاصة عندما تنحدر، فتعطى ما يسمى «بالسلويت» أبعادا فنية لا تنسى، أما المنطقة الوسطى، وبها هضبة «العجمة» تليها شمالا هضبة «القيه» أى إن تضاريس جنوب سيناء جبلية ساحلية إذ يبلغ طول شواطئها ٦٠٠ كم، حيث يوجد سهل ضيق

على خليج العقبة، وسهل ساحلى متسع نسبيا على خليج السويس، ويمتاز هذا الشاطئ برمال ناعمة ساحرة، وبمياه زرقاء رائعة.

وإذا تتبعنا الطريق خطوة خطوة، نبدأ من منطقة جنوب عيون موسى، فرأس مسلة ثم رأس سدر «المدينة البترولية القديمة» ثم منطقة العيون الحارة بجبل فرعون وميناء رأس ملعب حيث يصدر الجبس، فواحة غرندل ثم مدينة أبو زنيمة حيث المنطقة الصناعية الجديدة للفيرو منجنيز ثم مدينة أبو رديس يليها منطقة بنلايم ثم سهل القاع، وتقاطع وادى فيران المتجه شرقا إلى المنطقة الجبلية وسانت كاترين، أما المتجه إلى مدينة الطور عاصمة المحافظة والتي ارتبط اسمها «برحلة المحمل والحج إلى بيت الله الحرام» كما ارتبطت بالمحجر الصحى ثم معتقل الطور.

وكانت الطور منذ عصر المماليك ميناء تجاريا هاما، وموقعا استراتيجيا وعسكريا كبيرا، وقد استخدم هذا الطريق للحج منذ سافرت «شجر الدر» عام ١٢٤٨ م مع قافلة الحجاج إلى مكة عن طريق سيناء - فيتجه جنوبا إلى سهل القاع لمسافة ٦٠ كم، ثم ٩٠ كم للمتجه إلى شرم الشيخ، أما ساحل خليج العقبة فيبدأ من محمية رأس محمد حيث شهرتها العالمية فى دنيا الغوص تحت الماء، ثم خليج نعمة وهو قطعة فنية بديعة، ثم مدينة ذهب، وهى بحق مدينة ذهبية برمالها، فعند شروق الشمس وغروبها، ترسل الشمس أشعتها الذهبية عبر السماء الصافية، وتمر وتتلاقى مع ذرات الرمال الناعمة التى تراقصها

الرياح، وتداعبها ذرات بخار الماء الصاعد من مياه الخليج، فتكون بانوراما شكلتها هذه الرؤية الذهبية.

ونواصل المسير إلى نويبع فجزيرة فرعون.

ونستقر في طابا !

وطابا.. دخلت مفردات الوطنية المصرية من أوسع أبوابها، كانت النقطة الأخيرة التي تم تحريرها، وقد انتابني شعور متناقض، ومتضارب «هو» بين الشعور الوطني الفياض، ومشاعر الغضب للتواجد الإسرائيلي المشبوه! لقد خاضت مصر معركة خاصة بطابا استمرت ست سنوات وخمسة شهور وأربعة أيام، منها ثلاث سنوات في التحكيم الدولي.. حيث كانت معركة بحق، إذ قدمت مصر مذكرات إلى محكمة العدل الدولية بلغت ١٥٠٠ صفحة وستة مجلدات من الملاحق، ومائة ساعة من المرافعات الشفهية، وكان الجميع، رجال السياسة والقانون والجغرافيا والتاريخ والاستراتيجية والمساحة العسكرية والحدود في سباق رهيب مع الزمن من أجل إعادة طابا عزيزة وغالية. وطابا.. هي فصل هام في كتاب الحرب بين مصر وإسرائيل، وذلك يطرح تساؤلا: لماذا احتفظت إسرائيل بطابا، ذلك أنها تمثل أبعادا هامة، سياسية واستراتيجية وعسكرية، فهي تمكن إسرائيل من وجود حدود لها مع مصر والأردن والسعودية، حيث تتحكم في عدة طرق إلى السويس وشرم الشيخ والعقبة، ووجودها - أي طابا - مع إسرائيل يجعلها من دول حوض البحر الأحمر الذي يمثل - في الحقيقة - بحيرة عربية خالصة.. وعادت طابا إلى موقعها من

الوطن الأم، لا سيما وأن اسمها الأصلي كان «رأس المصرى» كما يقول د. يوسف أبو الحجاج.

والثابت تاريخياً أن قدماء المصريين أطلقوا على بدو سيناء اسم «هيرساينو» أى «سادة الرمال».. أما فى العصر المسيحى فقد عرف هؤلاء السكان باسم «أعراب بنى إسماعيل».. ويرجع أصول بدو سيناء إلى العنصر العربى الذى أطلق على جميع الشعوب الناطقة باللغات السامية فى كل المنطقة العربية.. إذ كانت تلك المنطقة متصلة ومتشابكة مع المجتمعات المحيطة بها، وتعتبر قبائل «يلى» من أقدم القبائل العربية الموجودة فى شبه جزيرة سيناء، وإن كانت من أقلها عددا فى الوقت الحاضر وقد هاجر من الجزيرة العربية فى عصر الفتح الإسلامى نحو ٧٥ قبيلة، استقرت فى مصر وسيناء، ومنها قبائل «بنو واصل والمواطرة، والبدارة» التى استقرت فى شبه الجزيرة، وذابت فى سكان البلاد الأصليين من «المونيتو» وكونت الأساس الاجتماعى للمجتمع البدوى الذى يتكون فى جنوب سيناء من ١٣ قبيلة، تشكل الحياة الاجتماعية داخل المجتمع المتناثر.

وأهم القبائل الحالية فى سيناء الجنوبية «الصوالحة» الذين يرجع نسبهم إلى «حرب» من قبائل الجزيرة العربية، وهم يمتلكون الآن قلب بلاد الطور، أما قبيلة «مزيننة» فتنزل فى المنطقة الواقعة إلى الشرق من سانت كاترين، وتمتد على طول خليج العقبة، أما قبائل العليقات، فينسبون أنفسهم إلى قبيلة قديمة من بنى عقبة، وإن كان البعض يرى أن هذه التسمية محرفة، وأنهم فى الحقيقة «عقيلات» لا «عليقات»

نسبة إلى عقيـل بن أبى طالب، وهم ينزلون فى مناطق غنية بالماء والنبات، أما قبيلة «الجبالية» فهم ينتسبون إلى المنطقة الجبلية المرتفعة التى يسكنونها فى منطقة جبل موسى وسانت كاترين، وهم يختلفون اختلافا ملموسا عن سائر بدو سيناء فى ملامحهم وسماتهم وطبائعهم. وبدو سيناء ليس لهم قانون مكتوب يحكم التعاملات بين الناس، لكن تراثا طويلا من المعاملات، وضع قواعد مضبوطة للتعامل يحترمها الجميع، ويقول «نعوم شقير» صاحب أضخم وأقدم كتاب عن سيناء اسمه «تاريخ سيناء» يقع فى ألف صفحة، ولا يباع إلا فى مكتبة «سانت كاترين» بدو سيناء كسائر البدو، يعنون بحفظ أنسابهم، بل ويبالغون فى استقصائها حتى يردوها إلى الآباء الأقدمين، كما أن كل قبيلة مرتبطة بسائر القبائل بحلف أو «قلد» ولها حسيب حافظ لعهودها مع القبائل، ويعرف بالعقيد، أو بنقال الأقالد، أو نقال العلوم، أما «الحلف» فهو المحالفة بعينها، وهو معاهدة دفاعية هجومية، وأما «القلد» فهو معاهدة سلمية لمنع الحرب أو الغزو وحفظ السلام بين القبائل، ويشترط فيما يعقد عنده الحلف أو القلد أن يكون مشهورا مذكورا وسيع المراح راعى مال وعيال، ويدعى راعى البيت، وبيته بيت العمارة، وهو الشاهد الحكم بين المتعاهدين ويورث علمه للأرشد من أولاده!

واستنادا إلى العرف الذى استقر بين القبائل، فأضحى أقوى من القانون، يفصل فى الخلافات بين البدو «قضاة» منهم ينتخبون

من كبار المشايخ، ويتصفون بالإلمام التام بالعرف القبلى - كما يقول الباحث محمد نور الدين - لذلك قسمت شرائع العرف كالتالى :

القاضى الذى يختص بالجرائم التى ينكرها من تنسب إليه لعدم كفاية الأدلة، يقوم باختيار المتهم عن طريقين، أولهما: اختباره بالنار، وذلك بأن يتولى إحضار طاسة نحاس يحميها على النار إلى أن يحمر لونها، ويمسحها ثلاث مرات، ثم يأمر المتهم بأن يغسل لسانه بالماء، ثم يناوله الطاسة المحماة «ليلحسها» بلسانه، ثم يغسله، فإن ظهر على لسانه حرق «فقفقه» حكم المبتشع بالدعوى لخصمه، وقيل فى تبرير ذلك، أن المتهم إذا كان ارتكب الجريمة، فإن ريقه يجف من الخوف، وبالتالى تؤثر النار على لسانه.

أما الاختبار الثانى فيكون بالماء، وذلك بأن يحضر القاضى إبريقا من النحاس، ويقف الحاضرون ومن بينهم المتهم فى دائرة، ثم يقوم القاضى «بالتعزيم» على الإبريق الذى يتحرك من تلقاء نفسه، فإذا وقف أمام المتهم، ثبتت عليه القهمة، وإن وقف أمام المبتشع «أى القاضى» كان بريئا.

أما القاضى المختص بالعقوبات والجروح، فهو يصور الجزاء على قدر كل جرح، وأكثر القصاصين من قبيلتى المزيقة والقرارشة، وهناك قضاة متخصصون بأمور الإبل، وشرعية الإبل صارمة جدا لأنها الأساس الاقتصادى للقبيلة، وهناك قضاة متخصصون فى النساء، ويحكمون فى المسائل المتعلقة بهن مثل هتك العرض والمهر والطلاق.

وإذا كان الرجال في المجتمع البدوي هم المسيطرين، لكن المرأة البدوية لها دور هام في الحياة الأسرية، فهي التي تصنع الخيام وتغزل الأغذية وتقوم بجلب الماء وجمع الحطب وطحن الحبوب، علاوة على مهارتها الخاصة في التطريز البدوي المشهور بوحداثه الجميلة، ومنها «دقن الباشا».

ومن تقاليد البدو أن المرأة تحلف أو تقسم برأس أبيها، لا برأس زوجها، وذراع ابنها، وهذا يدل على مدى اعتزاز البدوية بأهلها، وتمسكها بإعلاء شأنها، بالرغم من زواجها، أما قسمها بذراع ابنها، فهذا يعنى رغبتها في تنشئته بحيث يصير قويا شجاعا.

ويفضل بدو سيناء الزواج المبكر، وإن كانوا لا يميلون إلى تعدد الزوجات إلا في أضيق الحدود مثل الرغبة في الإنجاب، وعادة يتخير الشاب واحدة من بنات عمه، ولا يؤخذ برأى البنت إذا كانت «بكرا» .. أما إذا كانت «ثيبا» فيؤخذ رأيها، ولا بد من رضاها، وإذا رضى والد البنت بالخاطب ناوله غصنا أخضر وقال له: «هذه فسيلة فلانة بسنة الله ورسوله.. وإثمها وخطيتها في رقبتك من الجوع والعري ومن أى شئ نفسها فيه وأنت تقدر عليه» .. وعندما يتناول الخاطب الفسيلة يقول لوالد الفتاة: «قبلتها زوجة لى على سنة الله ورسوله» .

ويتم إعداد خيمة للعريس تدعى «البرزة» ليؤف فيها على عروسه، وتدخل مع العروس أقرب قريباتها، أما سائر الناس فيجلسون خارج البرزة، ويقوم أهل العريس بنحر الذبائح من الغنم لأهل الفرح عند باب

البرزة، ويعدون الأطعمة المحببة، ويمتد السامر حتى منتصف الليل،
وأثناء الاحتفال تخرج الناس من البرزة، ليدخل العريس، ويمكن فيها
مع عروسه ثلاثة أيام، والعادة المدهشة، هي فرار العروس قبل انتهاء
الأيام الثلاثة من البرزة، فيطاردها العريس، وذلك لكي يعيشا في الخلاء
بعيدا عن مخيم القوم، حتى يتم إعداد الخيمة الجديدة لهما.. !.

..

وسيناء.. تلك «العقدة» التي «تلحم» أفريقيا بأسيا كما يقول العاشق
المصري جمال حمدان، ليست مجرد صندوق من الرمال، إنما هي
صندوق من الذهب، فقد كانت منذ الفراعنة منجماً للذهب والمعادن
النفيسة، وهي الآن بئر بترولها، كما أنه من المهم أن ندرك أن سيناء
ليست مجرد فراغ أو حتى عازل، إنها عمق جغرافي وإنذار مبكر،
يمكن أن نشترى فيه الزمان بالمكان، إنها ككل خط الدفاع الأخير عن
مصر «الدلتا والوادي» !.

وإذا كان العلم الذي يرفرف على تبة طابا دليل عودة الشمس
والدفع لسيناء مصر، فهل عودة الشمس والدفع والوصال بين سيناء
والوطن الأم يكفي؟ وهل هذه العودة تصبح مجرد مادة للأغاني وكتابة
الأشعار؟

في رد عملي يقول عمنا جمال حمدان - الذي كان يرسم خطط المستقبل
باعتباره واحدا من سدنة هذا الوطن - التعمير، ويضيف.. التعمير
البشري، والتعمير العمراني، فالفراغ وحده هو الذي يشجع «الجشع»

ويدعو الأطماع الحاقدة إلى ملء الفراغ، وهناك إجماع على ضرورة نقل الكثافة السكانية المكتظة في الوادي إلى أطراف الدولة وحدودها، بما فيها وعلى رأسها سيناء، إن التعمير هو التمسير. !

ويرى عالم الجغرافيا حمدان أن سيناء تحمل في طياتها إمكانيات كبيرة للاستصلاح والتوسع الزراعي، كما أن قضية تمديد مياه النيل إلى شبه جزيرة سيناء ليست بدعة «فقد كان النيل يصب قديما غرب سيناء، كما أنه من الوجهة العمرانية البحتة لم يعد هناك مبرر لأن تظل قناة السويس أحادية الضفة، بل ينبغي أن تزوج تماما بالعمران الكثيف على كلتا الضفتين، ومن الضروري أن تمتزج مشاريع التعمير بمشاريع الدفاع معا، وفي تخطيط تعمير سيناء القوى، تضع التحدي الحضاري على مستوى التحدي العسكري.

روزيتا .. نهارك سعيد !

واحد من دراويش النيل «أنا» وكنت قد ألقيت نفسى فى مياهه،
فقدانى إلى مصبه، عند زهرته الجميلة «روزيتا» أو «رشيت»
.. وأخيرا «رشيد» .

والثابت تاريخيا وحضاريا أن المنبع ممثلا فى «النيل»، قد صدر الحياة
إلى المصب، فى حين صدر المصب ممثلا فى «البحر المتوسط» الحضارة إلى
المنبع، فالأول صدر الخام، والثانى أعاده إليه مصنوعا وغزاة، وكانت
رشيد فى الحالتين محور الحياة والصراع.

فى الطريق من القاهرة، وفى اتجاه الشمال بنحو ٢٥٠ كم، نصل إلى
رشيد، ويتبين لنا عجب هذا النهر، الذى خرق القاعدة الجيولوجية
مرتين، ولصالح مصر:

□ تتجلى الأولى فى كونه أحدث أنهار القارة الإفريقية.

□ والثانية بوصفه مخالفا لكل أنهار الدنيا، إنه يتجه طوليا من
الجنوب إلى الشمال، ولم تفت هذه المخالفة الطبيعية هيرودوت..
فسجل «أنه يجرى عكس كل الأنهار الأخرى» .. ووصفه عمنا جمال
حمدان بأنه: «العاصى الأعظم» . !

(١)

والزهرة الجميلة «رشيد» .. ذلك المثلث الذى يحده شرقا «النيل»

فى فرعه المسمى باسمها، وشمالا البحر المتوسط، حيث يلتقى النهر مع البحر فى عناق أسطورى، أسفر: حياة وحضارة وغزاة ومصاهرات ومعاهدات، وقلاعاً، أما الضلع الثالث، فهو قاعدة المثلث التى يبلغ طولها ٢٢ كم، ويضم مليون نخلة.

يصف أحد علماء الحملة الفرنسية «جولوا» هذا الموقع بقوله «رشيد» قابعة على شط النيل، وعلى بعد ثلاثة فراسخ من البحر المتوسط، وتستخدم كمستودع للبضائع القادمة من القاهرة، والمناطق العليا من مصر، كى تنقل إلى أوربا عن طريق الاسكندرية، وبنفس الطريقة تستقبل البضائع القادمة من أوربا عن طريق الأسكندرية، وتنتقل هذه البضائع إلى القاهرة عبر النيل، ومن هنا تتوزع إلى جميع أنحاء مصر.

يضيف جولوا، الذى وصل رشيد عن طريق البحر المتوسط على متن السفن الفرنسية الغازية، كما جاء فى موسوعة وصف مصر، والتى نقلها إلى العربية أحد كهنة حب مصر زهير الشايب.. «على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ من مصب النيل، كان لون المياه أخضر فاتحاً، وقد تبين الخط الفاصل بين اللون الأخضر لمياه النيل، واللون الأزرق لمياه البحر المتوسط، وما أن اجتزنا البوغاز، حتى تغير اللون الأخضر، إلى اللون الأصفر الناتج بلا ريب من لون الرمال التى ينقلها النهر إلى مصبه، والناتج كذلك من لون الطمى العالق بمياه النهر».

وأصبح مع «جولوا»

والسباحة هذه المرة جنوباً

فقد تجاوزنا البوغاز.. ودخلنا إلى النهر الذى احتوانا، ونظرنا يمينا :
«كانت ثمة غابات من النخيل ذات خضرة آخاذة، وحيث إن شطآن النهر
قليلة الارتفاع، فقد كان مدى البصر يمتد إلى بعيد، كنا نلمح قرى،
ومآذن رائعة وأضرحة تتجمع حولها مجموعات من النخيل، أما من
جهة الدلتا، فكانت العيون تشعر بارتياح تجاه حقول يغطيها الأرز،
فتشكل واحدا من أبهج المناظر، ومن غير بعيد من النهر، ينمو بوفرة
المحاصيل والشجيرات، ويلاحظ من بينها غابات من أشجار البرتقال
والليمون التى تنشر شذى طيبا» .

ويضيف، جولو وأنا: «وقد يتهيا المرء وهو يعيش وسط أشجار وشجيرات
بساتين رشيد، أن يترك لخياله العنان، ولا يستطيع إلا الاستسلام للبهجة
التي تصنعها الروائح التى تنتشر فى كل مكان.. وللمشهد الآخاذ لزهرة
الرمان ذات اللون الأرجوانى، ولزهرة الريحان ذات اللون الأبيض،
ومع ذلك فهل يمكن لهذه الجداول التى تنشر الماء والنماء فى كل مكان أن
تكمل صورة الجمال، يضاف، كل بساتين رشيد تقع على حافة الصحراء،
وتشكل سياجا يحدد مساحتها، وكذلك فإن الأشجار التى تزرع فيها تصنع
ما يشبه حواجز تصد عن المدينة رمال الصحراء» .

(٢)

ورشيد:

مدينة قديمة يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرة الأولى فى التاريخ
الفرعونى، لأن الملك مينا كان قد زحف إليها فى ثورته الأولى سعيا

وراء تحقيق الوحدة بين الوجهين القبلى والبحرى، فاصطدم بأهل هذه المنطقة الذين كانوا يسمون «رخيتو» أى «عامّة الناس» .. وهذه الكلمة قريبة من الأصل القبطى لرشيد وهى «رشيت» التى صارت فيما بعد «رشيد» .. أما «روزيتا» أى الوردة الصغيرة «فهى ليست إلا تعديلا للتسمية «رشيد» .

وفى الأسرة التاسعة عشرة، أقام الملك «منفتاح» استحكاماته على الضفة الغربية لفرع النيل برشيد، لصد هجمات الإغريق والصقليين، وقد انتصر المصريون لأول مرة فى معركة حربية مع أوربا، والتى جرت وقائعها على أرض رشيد، كما أقام الملك «بسماتيك الأول» عام ٣٦٦ ق . م معسكرا على ساحل رشيد، وأوقف ثلاثين سفينة لحمايتها، كما أن فرع النيل الحالى «البولبتيينى» نسبة إلى «بولبتين» التى قامت رشيد على أنقاضها فى العصر اليونانى، حيث كان يصنع بها العجلات الحربية اليونانية .

ودخلت رشيد فى الإسلام على يد عمرو بن العاص بعد فتح الأسكندرية عام ٢٠ هجرية، وكان حاكم رشيد القبطى «قزماس» قد عقد صلحا مع ابن العاص وأدى الجزية، وظلت الكنائس على حالها لمن بقى على دينه من أهلها .

وفى القرن الثالث الهجرى، وعلى حد قول اليعقوبى فى مؤلفه «البلدان» كانت رشيد مدينة عامرة آهلة بها ميناء بحرى يجرى فيه مياه النيل إلى البحر المالح، وتدخله المراكب حتى تصير فى النيل .

يضيف «أما في القرن الرابع الهجري، فقد تعرضت رشيد للمعارك الحربية التي جرت بين العباسيين والمغاربة، ففي سنة ٣٠٦ هـ. أرسل المقتدر بالله العباسي أسطولاً من بغداد التقى عند رشيد بأسطول المهدي صاحب المغرب، فانتصر العباسيون حيث احترقت مراكب المهدي وفنى كثير من رجاله ووقع الباقون في الأسر» .

ويقول ابن دقاق في كتابه الانتصار بواسطة عقد الأمصار «ثغر رشيد المحروس، وبلدته عند مجمع البحرين وتجاهه جزيرة تعرف بالخضراء ويوجد بهذا المكان فرس النيل، وبها جامع وحمام وأمير مركز وبها كوم الأفراح، وبأعلى الكوم منار يرى منه مراكب الفرنج القادمة، وقد عمره السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، وبأسفله برج عمره الأمير صلاح الدين بن عرام على شاطئ النيل، وبالبرج المذكور كتاب سبيل يقرءون به، وهذه البلدة كثيرة بشجر الرمان والنخيل، وأهلها قليلون، وعامتهم صيادون في السمك والطير، وإن كان أهل هذه المدينة كلهم مرابطون» .

وقد بلغت رشيد أوج حضارتها في القرن العاشر الهجري، ويذكر ابن زبيل في تحفة الملوك والغرائب: «من ثغور مصر كوم الأفراح، فيها مقابر كثيرة من الصحابة، وهي مدينة حصينة، بينها وبين أبي قير بالأسكندرية نحو ثمانية فراسخ في البر، وفي رشيد يعمل السكر ويجلب منها إلى جميع الممالك، وكذلك الأرز والسمك، وبها أصناف اللحوم والفواكه» .

لذلك .. فقد حظيت هذه المدينة بعد أن أصبحت أقرب الثغور المصرية من استنبول بعد فتح مصر «٩٢٤ هـ - ١٥٧١ م» بالمنشآت العثمانية، وكان أكثرها مساجد ووكالات ومقاهى ومقاجر، وكان يوجد بها مؤسسات أوروبية وقناصل يمثلونها، وأولها البندقية، إلا إن القرن الثانى عشر قد شهد انحدار المدينة، شأنها فى ذلك، شأن المدن المصرية على أيدي المماليك المتناحرين .

(٣)

ومع مطلع الثانى من شهر يوليو ١٧٩٨، كتب فصل جديد من التاريخ المصرى، حين حط نابليون بونابرت بقواته فى الأسكندرية، حالما بأن تكون مصر «لؤلؤة» الإمبراطورية الفرنسية، على غرار الهند «لؤلؤة» الإمبراطورية البريطانية، وعلى حد تعبير بونابرت فى مذكراته «تأمل ما تصبح عليه هذه البلاد الجميلة بعد خمسين سنة من الرخاء والحكم الصالح. إن المخيلة لترتاح إلى صورة جذابة: ألف هويس تتحكم فى طول البلاد وعرضها، لتوزع مياه الفيضان، وثمانية أو عشرة ملايين متر مكعب من مياه النيل تضيع كل عام فى البحر، يمكن أن توزع على كل منخفضات الصحراء»!

وبعد مقاومة باسلة فى الأسكندرية، تم استقرار الحال لبونابرت، فبادر بالتوغل فى البلاد لإتمام فتحها، فأرسل قوة إلى رشيد، لأهميتها، ولتأمين احتلاله للأسكندرية لأن تموينها من الطعام يأتى من رشيد، غير أن رشيد لم تقع فريسة سهلة فى أيدي الفرنسيين،

لأن المقاومة الشعبية كانت مستقرة - كما يقول محمد زيتون في كتابه إقليم البحيرة - فأدرك الفرنسيون ذلك الاتصال الوثيق بين مقاتلي الأسكندرية، ومناضلي رشيد، فصبوا جام غضبهم على السيد محمد كريم بطل المقاومة الشعبية السكندري، إذ نقلوه من الأسكندرية إلى رشيد، وبعد مهزلة أسموها محاكمة، حكموا عليه بالإعدام .

(٤)

وفي ٢ مارس ١٧٩٩، تمت المصاهرة الفرنسية المصرية، بعقد قران الجنرال جاك مينو، القائد الثالث للحملة الفرنسية، والذي أشهر إسلامه، وأطلق على نفسه اسم «عبد الله» على جميلة جميلات رشيد الأنسة زبيدة بنت محمد البواب، من كبار تجار رشيد.

يقول الجبرتي «إن قائم المقام الذي يسمى عبد الله جاك مينو، وكان حاكما على رشيد، وأعلن إسلامه وتسمى عبد الله، وتزوج بامرأة مسلمة غصبا عن أهلها، ففر والد زبيدة من المدينة يوم خطبتها خوفا من عار هذه الزيجة التي لطخت اسمه» !

ولم يثبت أن سلمت زبيدة قلبها إلى مينو الفرنسي، بالرغم من أنها أنجبت منه ولدا سمي «سليمان مراد» .. وقد كتب مينو - الذي انتقل إلى القاهرة في يونيو ١٨٠٠ م خطابا إلى المشايخ والعلماء يوم أن أنجب ولده يقول فيه «يا حضرة المشايخ والعلماء، إننا نشكر فضلكم على ما أظهرتم لنا من تهنئة بولادة ولدى السيد سليمان مراد جاك مينو، فنطلب من الله سبحانه وتعالى، ونسأله بجاه رسوله سيد المؤمنين

مينو سيقترن بها، أو أن «القدر و المكتوب على الجبين» هو الذى أتم
الزواج ؟

فى صباح يوم الجمعة عام ١٧٩٨ هبط الفرنسيون رشيد، وهرب
من مواجهتهم حاكم رشيد عثمان خجا، وجنوده من الانكشارية،
ودانت السيطرة للجنرال «دوجا».. وبعد ثلاثة أيام وصل الجنرال جاك
فرانسوا مينو إلى رشيد بعد أن عينه نابليون بونابرت حاكما عليها .
واشتعلت المقاومة الشعبية، وضمت رجال دين وبسطاء، لكن المقام
استقر للفرنسيين

وذات يوم ومينو يجلس فى صدر إيوان بيته فى رشيد «يتمل
ضجرا من المقاومة الشعبية، أشار عليه بعض معاونيه من ضرورة تغيير
سياسته تجاه أهل رشيد، بالتقرب منهم، عن طريق المصاهرة !
وبعد مداولات اختار له أحد العالمين ببواطن الأمور فى رشيد،
إما واحدة من بنات الشيخ الجارم، وإما بنت البواب، وعندما وصل
الخبر إلى الشيخ الجارم، قام على الفور بعقد قران ابنتيه «رقية وآمنة»
على طالبين كان يدرسان على يديه.!

ولم يبق غير بنت البواب
وأرسل مينو فى طلب محمد البواب، وداهمه بطلب يد ابنته
الوحيدة «زبيدة».. وأسقط فى يد الرجل، وهرب من رشيد قبل إتمام
الزواج، فى الوقت الذى أشهر فيه مينو إسلامه، وسمى «عبد الله» .
وكان شاهدا العروس، شقيقها من الأم «على الحمامى السيد أحمد»

هـى امـرأة
مـلأ أعـطافـها
عـبـبـق
يـسـتـدل عـلـيـهـا بـه
مـن يـود الـدـلـيـلا
هـى.. امـرأة تـشـبـه المـسـتـحـيـلا!

(٧)

وروزيتا، الوردة الصغيرة، أو رشيد، كانت المفتاح السحري، الذى
فتح رحاب التاريخ المصرى القديم للإنسانية !
كيف؟!

لقد تمكن الفرنسى جاك فرانسوا شامبليون من فك الرموز
الهيروغليفية ومعرفة قواعدها ومعانيها وأسرارها المحفورة على
«حجر رشيد» الذى عثر عليه أحد ضباط الحملة الفرنسية ويسمى
«بوشار» والذى كان يقوم ببعض الترميمات لقلعة قايتباى برشيد.
والحجر الإنسانى المدهش، الذى تم العثور عليه عام ١٧٩٩،
هو عبارة عن حجر من البازلت الأسود، تحمل نسخة من مرسوم
أصدره بطليموس الخامس عام ١٩٦ قبل الميلاد مدون بخطوط ثلاثة هى
«الهيروغليفية وهى اللغة المصرية القديمة، والديموطيقية وهى اللغة
المصرية الشعبية، واليونانية.

الإنجليزى لمصر نحو ٧٥ عاما، إلى أن عادوا مرة أخرى إلى مصر عام ١٨٨٢.

ويذكر الجبرتى فى يومياته : «وردت معلومات من ثغر رشيد تذكر بأن طائفة من الإنجليز وصلت صباح يوم الثلاثاء، ودخلوا البلد، وكان أهل البلد ومن معهم من عساكر متهيئين ومستعدين بالأزقة والعطف، وكان كاشفها فى انتظارهم، وطلع بمن معه إلى البر فصادف تلك الشرذمة، فقتل بعضهم، وأسر الباقي» .

(٩)

ورشيد، كما يصفها الفرنسيون «جولوا» أن شوارعها ضيقة، متعرجة، وكل البيوت مبنية من طوب ضاربة الحمرة، غامق اللون .. وتسمى هذه «الطوبة» تسمى بالرشيدية السوداء التى يقال : إن العلماء عجزوا عن الوصول لمعرفة الطريقة التى صنعت بها .

ويسجل جولوا فى «وصف مصر» دهشته من أن «المدارس فى رشيد كثيرة العدد، وهو ما يتناقض كثيرا مع الجهالة التى كان من المعتاد افتراضها فى سكان مصر» ! والواقع .. أنه لم يجتمع فى مدينة مصرية من البيوت الأثرية مثلما اجتمعت فى رشيد بعد القاهرة، ونظرا لأنها كانت أغنى مدينة فى العصر العثمانى، فقد عكست هذه البيوت ما تميز به أهل رشيد آنذاك، من التقدم فى فن النجارة والعمارة والبناء، فضلا عن أن صناعة خرط الخشب تعد من أقدم وأروع هذه الصناعات، إذ إن الصورة الزاهية والباقية حتى الآن، دليل عنوان هذه الحضارة .

وتتضم رشيد ٢٢ بيتا أثريا، منها منزل الأمصيلي، وزبيدة البواب، فضلا عن ١٢ مسجدا ترجع إلى أصول تاريخية إسلامية مختلفة، وأربعة آثار أخرى هي طاحونة أبو جاهين، وحمام عزوز، وبوابة أبو الرئيس، وقلعة قايتباي .

وتعكس هذه الآثار الطابع الإسلامي، والمتأمل لها يقف كثيرا أمام المشربيات وصلات الاستقبال والنقوش الخزفية وأشغال الصدف، فضلا عن السرايب، وهي غاية في التعقيد والسرية، وكانت هذه البيوت مزودة بصهاريج للمياه العذبة، ومبنية على أحدث طرق الفن المعماري . ويصحبنا عالم الحملة الفرنسية «جولوا» في منزل الأمصيلي كنموذج للمنازل التي مازالت باقية، ومعظمها تحت الترميم الآن .. ويقول جولوا «يبدو في الطابق الأرضي باب على مدخل كبير، ومن ثم بابان آخران أقل حجما، وأربعة أعمدة ذات ارتفاعات ومقاسات غير متساوية، مقامة على قواعد تشكل نوعا من الزينة، ويبني مدخل الباب الرئيسي وواجهة المنزل من طوب شديد الانتظام، وثمة قطع من الخشب تختلط بهذا البناء، وتظهر أحيانا بالعرض، وأخرى لا تظهر، وهي مثل الإسفنج تمتص الهزات الأرضية» .

يضيف: «وينقسم بقية المنزل إلى ثلاثة طوابق تبين معالمها عن طريق كمرات خشبية تظهر أطرافها من الخارج لتشكل نوعا من الزينة، وينفذ الضوء إلى الأدوار العليا عن طريق نوافذ كبيرة تغلفها «تقفيصات» من الخشب، أي مشربيات» .

«وفى الواجهة فتحات تسمح بالتهوية، وثمة فتحات فى الجوانب لكى تجعل من الميسور الرؤية عن بعد فى الشارع حتى ترضى فضول السيدات اللاتى يستطعن الرؤية - بهذه الطريقة - أن يرينَ دون أن يراهن أحد» .!

«وثمة طابق رابع يشكل نوعا من الأكشاك، لها شرفة تستطيع النسوة أن يروحن عن أنفسهن دون أن يراهن أحد، ومع ذلك فمن الممكن رؤيتهن عن طريق المؤذنين من أعلى مآذن المساجد، فاحتاط الرشايذة لهذا الأمر، فتم اختيار المؤذنين من العميان» .!

يضيف «وينقسم البيت إلى جناحين، جناح الرجال، وجناح الحريم، وفى جناح الرجال أو مالك البيت كانت الشبابيك مغلقة بمشربيات خشبية كبيرة المربعات، أما مربعات مشربيات النساء فكانت أقل حجما، ويتم الاتصال بين الجانبين عن طريق سلم صغير، ويتم إيصال الطعام للرجال عن طريق كوة دائرية» .

ولأن المغنى، والطرب كان له باع كبير فى مصر طوال التاريخ، فقد تم تخصيص غرفة للغناء، فى منزلى الأمصيلى وزبيدة البواب، والغرفة غاية فى الجمال، فالسقف عبارة عن لوحة فنية، مرسومة بدقة، وبالعرفة مكان للتخت، وأمامه ما يشبه المكتبة، إذا فتحت - أحد أبوابها وجدت سلما صغيرا يصل إلى الدور الأعلى وبه مشربيات لتتمكن النسوة من الاستماع والاستمتاع بالطرب والموسيقى .!

- ١ - تعدد المداخل التى هى عبارة عن باب يقع داخل مستطيل بارز يعلوه عقد ثلاثى ، يتوسط عنده الأوسط دائرة مزينة بالزخارف النباتية والهندسية .
- ٢ - تحتوى هذه المساجد على أروقة وبائكات محمولة على أعمدة رخامية ، وأكتاف تحمل أسقفا خشبية أو قبابا كما هو موجود فى مسجد المشيد بالنور .
- ٣ - اعتناء الفنان بالأضرحة والمقاصير ، فزخرف واجهات بعضها بالطوب الرشيدى المبخور .
- ٤ - استخدام القيشانى فى زخرفة الجدران ، وفى المآذن كما فى مسجد دومقسيس .
- ٥ - استخدام الزخارف المشعة فى المحاريب ، وفى القباب .

(١١)

وأتجول فى شوارع رشيد

أتنفس رائحة التاريخ

الشوارع وسط المدينة ، شأنها شأن مدن مصر مزدحمة نهارا ، الناس على شاطئ النيل يصنعون يخوت الأغنياء ، ويتم نقلها إلى شرم الشيخ والغردقة ومارينا .

أما الملاحظة الواضحة ، فهى المقاهى ، بين المقهى والمقهى ، مقهى ، وهو ما لاحظته «جولوا» من ٢٠٨ سنوات ، وعلى حد تعبيره «رشيد

يدخن فيها الجميع ، غنيهم وفقيرهم ، لذلك تصبح النارجيلات ضرورة أولية ، فهي تصنع بكميات ضخمة ، وبأشكال مختلفة ، فهي تصنع من الطين الخزفي ، معجون بعناية فائقة .

يضيف : «المقاهى هى عبارة عن صالة واسعة ترتفع جدرانها ، ويوجد بها منصات أو مصاطب ، وعلى المصاطب يأتى الناس ليشربوا القهوة ويدخنوا النارجيلة التى لا تفارقهم مطلقا ، وينعمون أو يستمعون إلى إنشادات الشاعر المرتجل ، أو إلى حكايات يرويها حاكٍ لا يمل الحكاية ، وفى مقهى كبير على النيل تأتى العوالم أو الراقصات العموميات والموسيقيون والمنشدون والشعراء» .

لكن جولوا سجل ملاحظة هامة ، وهى الأذان يطلق لصلاة العشاء ، يتسابق أهل رشيد إلى المساجد ، يصلون ، ثم يولون وجوههم إلى منازلهم ، ليناموا !

أما الآن.. فالناس يصلون - أيضا - لكنهم يولون وجوههم نحو المقاهى ، فيسهرون فيها حتى الفجر ، لذلك فقد أصدر اللواء فتح الله الجندى رئيس المدينة قرارا بغلق المقاهى فى الواحدة صباحا ، بل إنه توقف عن إصدار تراخيص جديدة للمقاهى والكافيتريات.

ويرصد محمد العزازى مسألة المقاهى بقوله : يوجد نحو ١٢٠ مقهى برشيد ، عدا تلك التى أزالها رئيس المدينة والمقامة على كورنيش النيل تمهيدا لإصلاحه ، وجعله كورنيشا بلا مقاهٍ أو كافيتريات.

وقال: إن هناك أنشطة بيئية اندثرت، مثل ورش البلاط بعد ظهور السيراميك، والسجاد اليدوي والكليم والأقفاص من الجريد بعد ظهور أقفاص البلاستيك والحيال واللوف.

وأشار إلى أن الصيادين اتجهوا إلى أرتريا وليبيا، وكان هناك وعد بإنشاء ميناء صيد عام ١٩٨٥، مع تطهير البوغاز، فلا الميناء أنشئ، ولا البوغاز تطهر!

وقال مدير التأمينات إن الانتعاش الاقتصادي الآن يتمثل في صناعة السفن واليخوت، حيث يوجد ٢٤ ورشة، وتعد رشيد أهم المواقع في هذه الصناعة.

وتوقع إحياء النقل النهري، الذي سيخفف العبء على النقل البري، حيث ستنشأ مدارس لصناعة السفن، كما كان الحال أيام محمد علي، وسوف يوفر ذلك مليون فرصة عمل، بشرط إنشاء الميناء النهري.!

وفسر أحمد الجداوي تزايد عدد المقاهي والحلاقين ومراكز الاتصالات، بأنها أنشطة غير محتاجة إلى رأس مال.!

(١٢)

في زيارة سابقة لرشيد، كان رئيسها السابق حلمي زايد يحلم بمشروع قومي يعيد آثار رشيد بالكامل - كما يحلم بإنشاء فنادق مستخدما في ذلك البيوت المملوكية مثل عرب كندی وحسين غزال وزبيدة البواب، لتنشيط حركة السياحة، مع تحويل رشيد إلى مركز ثقافي يتسق مع تاريخها الطويل.

العدد
القادم

التقاويم وقياس الزمن
د. أحمد عبد الهادي

